الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

كلية الأدب العربي والفنون

قسم الأدب العربي

تخصص: أدب قديم

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في الأدب العربي الموسومة بـ:

شعر الصعاليك والقيم الاجتماعية

إعداد:

- بوخاري إيمان

إشراف:

- د. بن دحان عبد الوهاب

السنة الجامعية: 2017 - 2018


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان :

الحمد لله و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين ، محمد صل الله عليه وسلم و بعد :

الحمد لله الذي أنعم علينا بالعلم و جعله في خدمة الناس و نشكر الله كثير على فضله ، و نعمه ، وهو القائل :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أوتوا العلم درجات﴾

المجادلة الآية (11)

و الشكر الخاص للدكتور المشرف " **بن دحان عبد الوهاب** " على النصائح و الإرشادات التي كانت لنا شعاعا أنار لنا طريق البحث و المعرفة .

كما لا أنسى أن أتقدم بالشكر إلى جميع من قدم لي يد العون لإنجاز هذا العمل المتواضع .

لكـل هؤلاء ألف شكـــــــــر

مقدّمة

يعد شعر الصعاليك ظاهرة فكرية نفسية ، اجتماعية و أدبية لطائفة من شعراء العصر الجاهلي . عكس سلوكهم و شعرهم نمطًا فكريًا و اجتماعيًا مغايرًا لما كان سائدًا في ذلك العصر .

و الصعلكة في الاستعمال الأدبي لا تعني الضعف بالضرورة ، فهناك طائفة من الصعاليك الذين تمردوا على سلطة القبيلة و ثاروا على الظلم و القمع و القهر و الاستلاب الذي تمارسه القبيلة على طائفة من أفرادها . وعلى الرغم من أن مقاصد شعر الصعاليك كلها في تصوير حياتهم و ما يعتريها من الإغارة و الثورة على الأغنياء و إباحة السرقة و النهب و مناصرة الفقراء ، إلاّ أنه اهتم بقضايا فئة معينة من ذلك العصر ، يرصد واقعها و يعبِّر عن همومها و يتبنى مشكلاتها و ينقل ثورتها النفسية العارمة بسبب ما انتابها من ظلم اجتماعي .

وهذا ما دفعني لطرح عدة تساؤلات تمحورت حول ما مدى تأثير هذه الظاهرة في حياة الصعاليك ؟ وما هي أهم الموضوعات التي تناولها الشعراء الصعاليك في قصائدهم ؟ و ما هي ابرز القيم التي تفرّد بها هذا الشعر عن غيره من الشعر الجاهلي ؟ .

وإذا جئنا إلى الحديث عن الدراسات السابقة التي تناولت الموضوع فإننا نشير إلى أنها قليلة بعض الشيء نظرًا إلى أن شعر الصعاليك أغلبه لم يكن مدونًا منه إلا القليل ، لذا جاءت الدراسات قليلة قلة الشعر ذاته ، ومن الدراسات السابقة للموضوع ، الدراسة التي قام بها الباحث : يوسف خليف بعنوان " الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي " إلى جانب دراسة الباحث : عبد الحليم حنفى بعنوان " شعر الصعاليك منهجه و خصائصه " ، و لعل أهم سبب دفعني لاختيار موضوع " **شعر الصعاليك و القيم الاجتماعية** " راجع إلى قلة

العناية بهذا النوع من الشعر مقارنة مع الدراسات الأخرى التي تناولت الشعر الجاهلي ، أو شعراء العصر الجاهلي ، فحاولنا تسليط الضوء على شعر الصعاليك لما له من قيم اجتماعية و خلقية و فنية رائعة .

وقد استقصت طبيعة الموضوع استخدام المنهج الوصفي التحليلي ، وتطلبت الدراسة تقسيم البحث إلى مدخل و فصلين و خاتمة . فالمدخل تحدثنا فيه عن الشعر الجاهلي بصفة عامة و ابرز خصائصه .

أما الفصل الأول فتحدثت فيه عن الصعاليك و المجتمع العربي و قد قسمته إلى مبحثين فأما المبحث الأول تناولت فيه المظاهر الاجتماعية و أثرها في حياة الصعاليك ، و المبحث الثاني كان فيه الحديث عن صورة المجتمع عند الصعاليك .

و عن الفصل الثاني فكان تحت عنوان موضوعات و قيم شعر الصعاليك ، وكذلك تناولنا فيه مبحثين بعنوان أغراض شعر الصعاليك و قيم الشعر الصعلوكي .

و جاءت الخاتمة محوصلة لنتائج البحث . و قد حفلت مكتبة البحث بجملة من المؤلفات التي تخدم الموضوع ومنها : مدونة البحث المكونة من ثلاثة دواوين لكل من الشنفرى تحقيق إميل بديع يعقوب ، و تأبط شرًا شرح علي ذو الفقار شاكر ، و عروة بن الورد تحقيق أسماء أبو بكر ، وغيرها من المراجع التي استعملتها في إثراء بحثي هذا .

و قد اعترضت هذا البحث كغيره من البحوث عدة صعوبات لعل أهمها ضيق الوقت ، قلة الخبرة ، و صعوبة التمييز و الاختيار بين المراجع ، و لكن هذه الصعوبات أضفت على البحث متعة كبرى .

و في الختام لا يسعني إلا أن أشكر المولى عز وجل على نعمه الكثيرة التي أنعم بها

عليّ ، كما لا يفوتني أن أقدم خالص شكري للدكتور المشرف على البحث " الأستاذ **بن دحان عبد الوهاب** " الذي تحمل معي مشقة البحث .

كما أقدم شكري الخالص إلى الوالدين الكريمين وإلى كل من قدم لي يد العون لانجاز هذا العمل المتواضع .

و أخير القول إن حقق العمل غايته فالفضل لله أولاً و أخيرًا . و إن كان غير ذلك فحسبي أنني بذلت كل ما أستطيع من جهد ، و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و به أستعين .

إيمان بوخاري

مدخل : الشّعر الجاهلي وخصائصه.

نشأته :

الشعر ديوان العرب : قال أبو عمرو بن العلاء :" ما انتهى إليكم ممَّا قالت العرب إلّا أقلّه . ولو جاءَكم وافراً لجاءَكم علمٌ و شِعرٌ كثِير "[1].

فالأدب العربيّ برز إلى الوجود بانفجار شعريّ ، و هذا الانفجار الشعريّ شديد الإنسجام مع طبيعة العربيّ ،وسبب هذا الإنسجام الشديد كان الشعر شديد التدفُّق ينشده العرب في مسامراتهم ومواسمهم . في مفاخراتهم ومنافراتهم ، في غزواتهم وحروبهم ، في حَلِّهم وترحالهم ، حتى كان ديوانهم وخزانة أخبارهم وأحوالهم .

ولما كان الشعر في الجاهلية " ديوان عملهم ومنتهى كَلَمِهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون ، وفيه كانوا ، وبه يتمثّلون ، وبه يتفاضلون ، وبه يتقاسمون ، وبه يتناضلون ، وبه يمدحون ويُعابون "[2]

ولما كان الشعر كذلك كان ، ولا شكّ وافراً جدًا ، ولكنه لم يصل إلينا منه إلّا النّزر اليسير لأسباب مختلفة منها ضعف التَّدوين وآلاته ومنها القضاء في الإسلام على كلّ ما يعوق الدعوة الإسلامية ، ومنها تشتُّت القبائل في الأصقاع البعيدة واندثار كثير من معالم بيانها ورواة أشعارها ، والذي وصل إلينا من ذلك الشعر حديث الميلاد.[3]

---

[1] ابن سلام الجمحي . طبقات الشعراء . دار الكتب العلمية . لبنان . 1422هـ / 2001م . ص 18 .

[2] اليعقوبي : أحمد ابن أبي يعقوب . تاريخ اليعقوبي . ج1 . طبع ب ليدن . 1883م . ص 304 .

[3] حنا الفاخوري . الجامع في تاريخ الأدب العربي . دار الجيل . بيروت . 1426هـ/ 2005م . ص . 131

وقال الجاحظ في وهمٍ كثير : " أمَّا الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أوّل من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومُهَلْهِل بن ربيعة .....فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له ، إلى أن جاء الله بالإسلام ، خمسين ومئة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام ..... وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلَّم بلسان العرب ، والشِّعر لا يُستطاع أن يُترجم ولا يجوز عليه النَّقل " .[1]

وبداية الشعر العربي أقدم ممَّا وهم الجاحظ ، ففي ما وصل إلينا منه إشارة إلى ما انقرض ، ولم يكُ باليسير كما سبق القول . فقد ضاع منه الكثير ، ولم يبق منه إلا الأبيات والمقطوعات وبعض القصائد التي

ومما لا يدع مجالاً للشك أن القصيدة العربية الجاهلية مرّت بمراحل من النمو والتطور حتى وصلت إلى الشكل الذي وصلت به إلينا ، وقد ينطبق عليها ما ينطبق على الطفل منذ إن يكون جنينًا في بطن أمه إلى أن يبلغ مرحلة الولادة .

وهكذا فإن مطولات امرئ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وغيرها لا تمثل – بأي حال من الأحوال – بدايات الشعر الجاهلي ، ولكنها تمثل ذروة ما وصل إليه هذا الشعر في زمنه .

ومما يلفت الانتباه هنا أن الشاعر الجاهلي الذي عبّر – بشعره – تعبيرًا ذاتيًا عن وجوده وأحلامه وحبّه ومختلف مناحي حياته ، لم يكن – رغم ذلك – يتصور الشعر عملاً فرديًا ، يعبر من خلاله عن ذاته الفردية ، بل كان يتصوره نوعًا من النبوغ في التعبير عن أحلام القبيلة وأمالها ومخاوفها . ليست شيئا يذكر بالإضافة إلى : " أنّ من يُسرِّح أبصاره في رياض الشعر الجاهلي لا يجد في شذَراته التي نجت من أيدي الضياع ما يدلّ على كونه فنّاً

[1] ينظر : أبي عثمان بن بحر الجاحظ ، الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون .ج 1 . ط 2 . 1384هـ / 1965م . ص 20 .

صغيرَ السنّ ، فإنَّ جميع ما نُقِل إلينا منه يظهر لنا في غاية الإتقان وزناً و تقفيةً ، وفي غاية التفنُّن من الإفتخار والتَّحضيض والزَّجر والمدح والغزل ، وهو يجمع رقَّةَّ العبارة إلى دقَّة الإشارة ، ومتانة التراكيب إلى رشاقة الأساليب ، وهكذا نشأ الشعر نشوءًا بطيئا .[1]

ولد الشعر العربي الجاهلي نشيدًا – إذن فقد نشأ مسموعاً لا مقروءًا ، غُنّي ولم يكتب ، كان بمنزلة الموسيقى الجسدية ، فهو لم يقتصر على كونه كلامًا ، بل كلام و شيء آخر ، قد يتجاوز الكلام ، وما يعجز عن نقله الكلام ، وبخاصة المكتوب ، وفي هذا ما يدلّ على عمق العلاقة وغناها و تعقدها بين الصوت والكلام ، وبين الشاعر و صوته ، إنها علاقة بين فردية الذات التي يتعذر الكشف عن أعماقها ، وحضور الصوت الذي يتعذر تحديده حين نسمع الكلام نشيدًا لا نسمع الحروف وحدها ، وإنما نسمع كذلك الكيان الذي ينطق بها .[2]

لقد تعددت الأقوال والمفاهيم حول الشعر الجاهلي ونشأته ومن بين هذه الأراء نجد الشعر الجاهلي يُقال عنه بأنه تطور عن النثر فبدأ بالسجع ثم تدرج إلى الرجز ثم انتهى إلى القصيدة ، فقد انتقل الشعر من معابد الكهان إلى الصحراء ومن الدعاء إلى الحداء فالشعر قد نشأ نتيجة لتطور العبارات المسجوعة التي كان يستخدمها الكهنة ، لأن سجع الكهان يشير إلى مصدر سحري وشيء غير مألوف في نظم الكلام .

والشعر الجاهلي شعر غنائي فلم يعرف الشعر العربي الأنواع الأخرى التي كانت موجودة لدى الأمم الأخرى (كالملحمي – والتعليمي – والتمثيلي) بل اقتصر الشعر العربي

---

[1] حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي . ص 132 .

[2] بوجمعة بوبعيو ، جدلية القيم في الشعر الجاهلي رؤية نقدية معاصرة . من منشورات إتحاد الكتاب العرب . دمشق . 2001 . ص 16 .

على الغنائي إذا أنه ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس . كما أنه ارتبط بالغناء منذ نشأته الأولى .[1]

لقد اختلف العرب في تأويل بدايات الشعر ، وعلى أي صورة كان ، وكيف اهتدى العرب إلى الأوزان ، فقالوا أنهم اهتدوا إليها على إيقاع سير الشُّوق في البادية ، فبدأت أشعارهم مقطَّعاتٍ ، يغنى بها الحُداةُ ، يحثُّون بها القُوق في سيرها الطويل عبر الصحراء ، ويتسلى بها الحادي وحده في وحدة الليل أو وحشة الطريق . ويرى بعض الباحثين أن الأوزان الشعرية تحورت عن النثر المسجوع ، وعلى ذلك فإن العرب في رأيهم استخدَموا أوّل الأمر النثر المسجوع ، وكان اهتداؤهم إليه مصادفة إذ وقعت في كلامهم كلماتٌ مسجوعة دون قصد إليها فاستحسنوها ، فعمدوا إلى الإكثار منها ، فكان هذا ديدنهم حتى وقع لهم تلك الكلمات المسجوعة في فقرات موزونة ، فتنبهوا لها ، فكرروها ، فحسنت لديهم ، فألفوا منها فقرات متماثلة فوقع لهم المقطَّعات وأطالوها ، فكانت القصائد .

ويخلد الشعر الجاهلي عصور ما قبل الإسلام ، فيكثف عن حضارة القيم في معتقدهم ، وطبائعهم ، وأخلاقهم ، وسننهم ولباسهم وشرابهم ، ويتأثر الشعر ببيئة الشاعر وثقافته وطبعه تأثرا واضحا .[2]

ومن الثابت في العصر الجاهلي أن الشعراء كانوا يحافظون على نتاجهم الشعري عن طريق الرواية ويعتمدون عليها ، وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها .

---

[1] توصيف مقرر . الأدب في العصر الجاهلي . رمز المقرر 3-503191 . ص 32 .

[2] محّمد زغلول سلاَمُ ، مدخل إلى الشعر الجاهلي دراسة في البيئة و الشعر . منشأة المعارف بالإسكندرية . مصر . 1989 . ص 127 .

ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفوية ، وقد ظلت الرواية متبعة أزمانا متتالية في الإسلام . ومن يرجع إلى شعر الجاهليين يجد شعراءهم يذكرون الرواية وأنها وسيلة انتشار الشعر في القبائل التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى أفاق الجزيرة .[1]

ومنه فإن الأدب العربي قديم النشأة جدًا ، والشعر الذي وصل إلينا من الجاهلية يمثل دورًا راقيًا ، فلقد اتسع نطاق الشعر في الجاهلية فلم يبق مقتصرًا على التعبير عن الخيال والوجدان فحسب ، بل شَمِل ذكرَ المفاخر ووصف المعارك وتَعداد بعض الحوادث حتى سُميّ بحق "ديوان العرب " ، أي سجل تاريخهم . وعلى الرغم من قدم نشأة الشعر العربي ، إلا أن القسم الأوفر منه ضاع بعوامل مختلفة منها هلاك نفر كثيرين من رواته في الفتوح بعد الإسلام ، وأيضا تشاغل الناس عن روايته بالدين والفتوح .[2]

وعليه فالشعر الجاهلي مرآة الحياة العربية ، و الصورة الصادقة لعادات العرب وتقاليدهم ومثلهم ، فيه من القيم الفنية و الصور الجميلة الرائعة و المعاني الدقيقة الموحية ما يجعله يُعد بحق ذروة الشعر العربي ، وقد كان القدوة المثلى التي يحتذيها الشعراء في العصور الأموية والعباسية ، يسعون إلى تقليده و محاكاته ، وقد بقى أثر الشعر الجاهلي واضحا في شعر العصور المتأخرة و مازال له سلطانه في نفوس قارئيه وسامعيه ، لما فيه من أصالة وجمال في التعبير ودقة في المعاني ونضج فني و موسيقي و لغوي كبير .[3]

خصائص الشعر الجاهلي :

---

[1] محمود رزق حامد ، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي . دار العلم والإيمان للنشر . ط 1 . دسوق . 2011 . ص 83 .

[2] عمر فرّوخ ، تاريخ الأدب العربي . دار العلم للملايين .ج 1 . ط 4 . بيروت .أبريل 1981 . ص 74 .

[3] يحي الجبوري ، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه .مؤسسة الرسالة . ط 5 . بيروت . 1407 هـ – 1986 م . ص 121 .

أ- *الخصائص المعنوية* :

لعل أول ما يلاحَظ على معاني الشعر الجاهلي أنها معاني واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله في الطبيعة ، فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة ، ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعتدلة .[1]

الصدق إذ يعبر الشاعر بصدق في الشعر عما يشعر به حقيقةً مما يختلج في نفسه ، وألا يتكلف

في إيراده ، بقطع النظر عما إذا كانت الحوادث التي يذكرها قد وقعت أو لم تقع أو كان مبالغا فيها .

النزعة الوجدانية والشعر الجاهلي وجداني في الدرجة الأولى ، يصف نفس قائله وشعوره ، و الأدب في الحقيقة هو الإنتاج الوجداني المطبوع .

البساطة بحيث أن الحياة الفطرية والبدوية والقدَم في الزمن عوامل تتضافر على جعل الشخصية الإنسانية ساذجة بسيطة ، كذلك كانت البيئة الجاهلية ، وكذلك كان أثرها في الشعر الجاهلي .

القول الجامع كانت الصفة الغالبة على الشعر الجاهلي أنه " شعر وجداني " ، من أجل ذلك كان مَعرِضًا للأراء المفردة أكثر منه معالجةً مستفيضة لشؤون الحياة . ولقد مال العرب عمومًا و الجاهليون خصوصًا إلى استجماع القول حتى كان البيت الواحد من الشعر يجمع معاني تامة ، وحتى جعل الأقدمون يفتخرون بذلك .

---

[1] عمر فرّوخ . ص 78 .

الإطالة والاستطراد وكان يُحمد في الشاعر الجاهلي أن يكون " طويل النفس " أي أن يطيل القصائد . وقد يخرج الشاعر أحيانًا عن الموضوع الأساسي إلى موضوعات تتعلق به من قرب أو من بعد ، وهذا يُسمى الاستطراد .

الخيال وإذا كان اتساع أفق الصحراء قد أدّى إلى اتساع خيال الشاعر الجاهلي ، فإن هذا الشاعر الجاهلي كان فطريًا بسيطًا كبيئته ، ولا ريب في أن الخيال في الجاهلية كان لا يزال يعتمد على التشابيه والاستعارات أكثر من اعتماده على انتزاع الصور من الطبيعة .

ب- *الخصائص اللفظية* :

من خلال المحافظة على التقاليد الشعرية ، فقد التزم الشعراء تقاليد معينة في جميع قصائدهم تقريبًا فالبداية تكون بالوقوف على الأطلال والبكاء وخطاب الآثار أو الأصدقاء ثم وصف رحيل الحبيبة ثم تصوير جمالها وما إلى ذلك من وصف للراحلة أو غيرها ثم ينتقل إلى غرضه الأساسي في القصيدة ، وتتجلى مهارة الشاعر الفنية في حسن الربط بين هذه الموضوعات وحسن الانتقال من موضوع لأخر .

ومن أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة ، فالتراكيب تامة ولها دائمًا رصيد من المدلولات تعبر عنه ، وهي في الأكثر مدلولات حسية ، والعبارة تستوفى أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز . وهذا الجانب في الشعر الجاهلي يصور رقيًّا لغويًّا ، وهو رقى لم يحدث عفوًا فقد سبقته تجارب طويلة في غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، ومازالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة ، فالألفاظ توضع في مكانها و العبارات تؤدِّى معانيها بدون اضطراب .[1]

[1] مقرر توصيف . ص 226 .

غرابة الألفاظ وجزالتها : لأن في الشعر الجاهلي وقع في أكثره على " كلمات غريبة " أي كلمات غير مألوفة في مخاطبات وكتابات في عصرنا الحالي .لكن ما يجب الإشارة إليه أن هذه الكلمات كانت أنذاك " فصيحة " أي مأنوسة مألوفة ، ذلك لأن ممارسة الجاهلي للحياة بين الخيام وعلى الإبل جعلت كل كلمة تتعلق بالخيام والإبل مألوفة عنده .

العناية والتنقيح : وبما أن الجاهلي كان يجري في شعره على سجيته وطبعه فإنه لم يتكلف عادة في ما كان ينظمه بل كان يلقيه إلى الناس كما يخطر له و يدور في خياله . ولكن كان هنالك نفر يأخذون شعرهم بالعناية والتنقيح ، وقد سماهم رواة الأدب " عبيد الشعر " لأنهم يتكلفون إصلاحه (بعد نظمه) و يَشغَلون به حواسّهم وخواطرهم . ومن أشهر هؤلاء النابغة وزهير و الحُطيئة ... وغيرهم ، فلقد اشتهر زهير بقصائده " الحوليات " ، أي التي كان يقضي حَولاً " عامًا " كاملاً في نظّم كل واحدة منها وتنقيحها وعرضها على النَقَدة .[1]

[1] بتصرف شوقي ضيف .ص 79

المبحث الأول : المظاهر الإجتماعية وأثرها في حياة الصعاليك

الصعلكة عبارة عن ظاهرة اجتماعية برزت على هامش الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي كردة فعل على بعض الممارسات الاجتماعية . فهي عبارة عن ثورة ضد الأغنياء الذين كانوا يهاجمونهم في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية .

ومن الصعاليك من كان يقوم على أمر الضعفاء والمسنين فيجمع لهم الطعام ويرعاهم ويحفر الآبار ، ومن المؤكد أن من الصعاليك من كان فاجرًا فاتك لا يتورع عن سفك الدماء ، في مقابل تلك النماذج الإنسانية التي نقلت قصصها كتب التاريخ الأدبي ، حتى إن نماذج للصعلكة قد استمرت في العصرين الأموي والعباسي .

أما لامية العرب التي تعد صورة (صادقة) دقيقة كاملة لحياة الصعاليك في العصر الجاهلي، إذ يرسم الشاعر صورة رائعة لذلك الجوع النبيل الذي يشعر به الصعلوك ، ولكن نفسه الأبية تأبى عليه أن يهينها من أجله ، فلا يجد أمامه سوى الصبر والقناعة .[1]

إن أول شيء يمكننا الحديث عنه في هذا الجانب هو أخبار الصعاليك ، فهي حافلة بالحديث عن فقرهم ، فكل الصعاليك فقراء ، لا نستثني منهم أحدًا ، حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذي كانوا يلجئون إليه كلما قست عليهم الحياة ، ليجدوا عنده مأوى لهم حتى يستغنوا ، فالرواة يذكرون أنه " كان صعلوكًا فقيرا مثلهم " ، وهذا الفقر الذي استبد بحياة الصعاليك حمل لهم في ركابه الجوع ، نتيجة طبيعية له ، ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير ، وقد سئل أعرابي : ما أشد الأشياء ؟ فقال : كبد جائعة تؤدى إلى أمعاء ضيقة.[2]

[1] يوسف خليف ، ص 36 .
[2] يُنظر: المرجع نفسه ، ص 29 .

وليس من الشك في أن هذه العبارة الساذجة التي صور فيها هذا الأعرابي إحساسه إنما تشير إلى قصة الحياة الأساسية ، قصة الصراع بين الحياة والموت . وذلك لأن المسألة تتصل بحاجات الجسم الحيوية الأولى ، فالجوع – كما يقرر علماء الاجتماع – أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان ، وقد كان من العرب من يغير من أجل الحصول على الطعام ، بل إن كثير من الصراع الداخلي بين القبائل الجاهلية إنما يرجع – من بعض جوانبه – إلى الفقر والجوع .

ويكثر الحديث عن الجوع في أخبار الصعاليك وشعرهم ، ففي أخبار عروة أن ناسًا من بني عبس أجدبوا "في سنة أصابتهم ، فأهلكت أموالهم ، وأصابهم جوع شديد وبؤس " فأتوا عروة يستنجدون به ،فخرج " ليغزو بهم ويصيب معاشًا "[1] . وتنتشر في شعره وأخباره مناقشات بينه وبين صعاليكه حول الجوع الذي كان يجهدهم في غزواتهم .

فقد أثرت الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي بتقاليدها و أعرافها القبلية في شعر الصعاليك تأثيرًا واضحًا . تجلى في الكثير من موضوعات شعرهم ، حتى يكاد المتأمل فيها أن يميزها للوهلة الأولى عن غيرها من قصائد الشعر الجاهلي . ويبدو ذلك الأثر في سَخطهم على المجتمع وذمه في كثير صوره التي لا ترضي الشعراء الصعاليك . وتجعلهم يفتخرون بأنفسهم عن طريق تبرئتها من العيوب الاجتماعية السائدة في عصرهم .

ويمكننا حصر مجموعة من المظاهر التي كان لها الأثر الكبير في حياة الصعاليك وهي متمثلة في كون الشاعر الصعلوك مظلوم . المتبرم من ظلم الأهل والأقربين ، إذ تحس في شعره عدم الرضا عن القبيلة ، والأهل حتى زوجته وإخوانه ، وهو يشكو في نغمة دائمة من هذا الظلم . الذي يؤرق مضجعه ، ويصيبه بسياط نفسية تطفح بين الفينة ، والفينة في أبيات

---

[1] يوسف خليف ، ص 30 .

شعره . فالشنفرى يستهل لاميته بهذه الشكوى ويظهر يأسه من بني أمه وأهله ، حتى يهون عليه أن يستعيض عنهم بالذئاب والوحوش التي ألفته وآلفها . ويرى أن في الأرض متسعًا لمن ضاق بكراهية الأهل وسوء معاشرتهم بأن يضرب في أطرافها مبتعدًا عنهم موفور الكرامة سالمًا من الأذى[1]:

أقيموا بنو أمي صدور مطيكم   فإني إلى قومٍ سواكم لاميلُ
فقد حمت* الحاجاتُ والليلُ مقمر   وشُدت لطياتٍ مطايا وأرحلُ
وفي الأرض منأي للكريم عن الأذى   وفيها لمن خاف القِلى متحول

---

1 ابن الشجري . حماسة ابن الشجري ، دار الكتب ، ط 1 ، القاهرة ، 1344هـ / 1925م ، ص 72 .
* حمت : قدرت .

وعروة يؤكد صلابة الرابطة بينه وبين رفاقه الصعاليك مقابل التخلي الذي يلقونه من أهلهم . ويجيب على عازلته التي تدعوه للاستقرار ونبذ حياة الغزو والمغامرة يقول :

وسائلةٍ أين الرحيل وسائلٍ   ومن يسألُ الصعلوكَ أين مذاهبهُ
مذاهبه أن الفجاج عريضةٌ   إذا ضنَّ عنه بالفعال أقاربهُ[1]

إن عروة يقرر المبدأ الذي يراه صحيحًا إذا تخلى عنه أهله ، ولم يجد عندهم عوضًا عما أصابه الدهر به . فلا مفر له من حياة الفقر ، وإذا لم يجد الفتى من أهله العون وهو فقير ، ووجد منهم الكيد و سوء المعاملة والمنة حينها يكون أمام خيارين إما أن يقبل هذه الحياة الذليلة والموت أشرف له من ذلك . والأمر الثاني لا يذكره عروة وإنما يضمره . وهو أن يضرب في الأرض متصعلكًا .

وتأبط شرًا يشكو وهن علاقته بأهله و أصدقائه ويقول إنه لا يأسف على هذه الخلة التي لا تستحق أن يُبكى عليها . لأنها في أصلها خلة ضعيفة ، وحبالها واهنة ومتقطعة . ثم يقول إنه إذا أحس بتلك القرابة أو الصداقة تنحو نحو ما ذكر والتي لا تعطي الخلة ما تستحقه من اهتمام ، فإنه سيتخلص منها كما تخلص من قبيلة بجيلة في تلك الليلة التي أرادت فيها قتله فبذل كل مجهوده في الهرب والنجاة بنفسه :

إني إذا ما خلةٌ صرم   وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق
نجوت منها نجائي من بجيلة إذ   ألقيتُ ليلة خبت الرهط أرواقي

[1] عروة بن الورد . ديوانه ، دراسة و شرح و تحقيق أسماء أبو بكر محمدّ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1418هـ / 1998م ، ص 48 .

وهكذا يشكو الصعلوك من أهله ، وقبيلته ، ويصفهم بالتخاذل عن نجدته ، وحمايته ويعيرها بغيرها من القبائل التي تنصر أفرادها وتدافع عنهم ظالمين و مظلومين .

فها هو صخر الغي يتحسر على ضعف حيلته ويرمي أهله باللوم حينما تخلوا عنه وتخازلوا عن نجدته ويتمنى لو لم يكن واحد منهم :

لو أن أصحابي بنو معاوية   أهل جنوب النحل المساميا

ورهط دهمان ورهط عادية   ما تركوني للذئاب الجائعة[1]

التبرم من الخلع :

كما يتبرم الصعاليك من ظلم ذوي القربى . يتبرمون من خلعهم وطردهم و اضطهادهم . ويشكون تشردهم و تنقلهم بين القبائل بحثًا عن الجوار . و يأخذون على قبائلهم سوء معاملتها ، وعدم حلمها وعفوها . فقد لجأ أبو الطمحان القيني إلى مالك بن سعد أحد بني شمخ ، فأواه وأجاره ، وضرب عليه بيتًا . فمدحه بأبيات ذم فيها أهله بقوله :

سأمدح مالكاً في كل ركب   لقيتهم وأترك كل رذل[2]

ولكنهم مع اعترافهم بجرائرهم التي لم تتحملها قبائلهم فنبذتهم . يودون لو أنهم مكثوا في مجتمعاتهم ووجدوا فيها الحماية . والنصرة ، وفي ذات الوقت يصب معظمهم سخطه على أهله و أقربائه .

---

[1] ديوان الهذليين . الدار القومية للطباعة والنشر، القسم 2 ، 1385هـ / 1965م ، ص 85 .

[2] الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين . الأغاني ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ج 13 ، د.ت ، ص 10 .

فالشنفرى يفضل الذئاب على أهله لأنها لا تؤاخذ بالجرائر ولا تخذل أفرادها إن ارتكب أحدهم جرمًا . فهي في كل الأحوال أفضل منهم :

هم الأهلُ لا مستودع السرِ ذائع لديهم ولا الجانـي بما جر يخذلُ [1]

و هو يشكو ما يحسه من سياط نفسية تنازعت لحمه و أوهنت جسده . فبات يعاني عاقبة أمره . ويتحسر على حاله :

طريدُ جناياتٍ تياسرن لحمـهُ عقيرته لا يهـاجمُ أولُ[2]

وفي قصيدة أخرى للشنفرى ترتفع هذه الشكوى :

هنالك لا أرجو حياةً تسُرني طولها الليالي مُسْبلاً بالجرائر [3]

وقيس بن الحدادية يمدح آل عمرو بن خالد الذين آووه و أحسنوا إليه . ولكن بعد أن يذكر نفسه بالخليع المطرد :

جزى الله خيراً عن خليع مطرد رجالاً حموه آل عمرو بن خالد[4]

وفي خبر مقتل قيس أبيات من الرجز أنشدها وهو يأسف على خلعه و طرده ويشكو تخلي أهله عنه . فبعد أن لقيه جماعة من مزينة وخيروه بين أن يستأسر أو أن يُقتل قال لهم . وما ينفعكم مني إذا استاسرت وأنا خليع . فوالله لو أسرتموني ثم طلبتم بي من قومي عنزًا جرباء

---

[1] ابن الشجري ، ص 75 .

[2] نفسه ، ص 95 .

[3] التبريزي . شرح الحماسة ، ج2 ، ص 24 .

[4] الأغاني 13 ، ص 10 .

ما أعطيتموها . فقالوا : استأسر لأم لك . فقال : نفسي على أكرم من ذلك . وقاتلهم حتى قتل وهو ينشد أبياتا من الرجز :

أنا الذي تخلعه وكلهم بعد الصفاء قاليه
وكلهم يقسم لا يناليه أنا إذا الموتُ ينوب غاليه
مختلط أسفله بعاليه قد يعلم الفتيان أنى صاليه[1]

ومنه فالصعاليك دائما يسخطون من جور أهاليهم والإجحاف الممارس ضدهم ، لكن إقرارهم بجرائمهم التي لم تطقها قبيلتهم جعلها تتخلى عنهم ، فهم أرادوا لو أنهم أقاموا بين أقاربهم ، فأكثرهم يرمي بسخطه على أهله ونجد منهم الشنفرى مثلا يختار الحيوانات والذئاب خاصة على آله باعتبارها لا تعاتب شخوصها إن أذنبوا .

تكلف حياة السادة :

لعل ما واجهه الشعراء الصعاليك من ضيم وعذابات جعلهم يفتخرون بأنفسهم وهم يضفون عليها صفات السادة الملوك ويتعاملون بكبرياء وأنفة . وقد يكون في طبيعة تكوينهم الاجتماعي أثر في تكلفهم هذه الحياة . إذ أن معظمهم لا يرتفع بهم نسبهم إلى درجة تمكنهم من الفخر و الاعتزاز . و إن لم يصرح شذاذهم وخلعاؤهم بذلك . عدا عروة الذي اعترف بوضاعة نسبه من جهة أمه حيث يقول :

لا تلُمْ شيخي ، فما أذرى به ، غيرَ أنْ شارك نهدًا في النسب[2]

[1] نفسه ، ص 13 .
[2] ديوان عروة ، ص 46 .

ولكن عروة وأصحابه لا يدرون أن يشعروا بوضاعة نسبهم أو إملاقهم ، أو حاجتهم للمجتمع . فهم يرون أن السيادة تتأتى بمكارم الأخلاق .

فها هو عروة يدعو سائلا أتاه أن يطرد روح الانهزام التي تجلت في حديثه ، و ينصحه بالتصرف كالسيد الحر العبد التابع :

يقول الحقُ مطلبه جميلٌ وقد طلبوا إليك فلم يقيتوا

فقلت له: ألا أخي وأنت حر ستشبعُ في حياتك أو تموت[1]

ومن مظاهر قوتهم أنفتهم من القيام بالأعمال الفرعية التي كانت تؤكل للموالي والعبيد ، وهو لا شك كبرياء يتناقض مع أحوالهم الاجتماعية .

فالشنفرى يرفض أن يكون راعيًا يرعى بأبله فيضلها ويبعدها عن مناطق الخصب :

ولست بمهيافٍ يعشي سوامه مجدعةُ سقبانها فهي بُهل[2]

وعروة يمجد الصعلوك المغامر ويسخر من الفقراء الذين ارتضوا أن يعينوا النساء في أعمالهن ولا يتطلعون لعلو الهمة و الأعمال المجيدة :

يعين نساء الحي ما يستعنّه ويمسي طليحاً ، كالبعير المُحسّر[3]

---

[1] المصدر السابق ، ص 99 .

* يقيتوا : يتحمل تبعات المعروف .

[2] حماسة ابن الشجري ، ص 79 .

[3] ديوان عروة ، ص 68 .

إذن هم أمرهم بأيديهم ، لا يريدون من أحد أن يفرض عليهم أي أعراف اجتماعية . بل هم زعماء أنفسهم . تحس في أشعارهم إحساس الخطب الحماسية و أنهم يريدون أن يحسوها و إن لم يعترف المجتمع بهم .

المبحث الثاني : صورة المجتمع عند الصّعاليك:

ذم المجتمع في كثير من صوره :

لم يكن الشعراء الصعاليك يرون في غزواتهم المتكررة على القبائل أدنى غضاضة و أقل ملامة و إن كان المجتمع يطلق عليهم (ذُؤبان) و (صعاليك) . ويذهب معظمهم إلى الفخر بهذه الاعتداءات و التلذذ بذكرها وتصويرها في شكل انتصارات تضاف إلى أمجادهم التي يحسونها و يحسبونها من حقوقهم التي يجب أخذها .

وقد كان الغزو و الإغارة هما دأب كل القبائل الجاهلية آنذاك ، إذ كانت الحروب تنشب بسبب التنازع حول الكلأ و الماء ، وأحيانًا تؤججها مشاجرة بين شخصين . وقد يحدث أن تغير عشيرة على عشيرة من قبيلتها و هذا من ولعهم بالحروب ، وفي ذلك يقول الشاعر :

وأحيانًا على بكرٍ أخانا   إذا ما لم نجد إلا أخانا[1]

ولقد كان الشعراء الصعاليك يسوقون في أشعارهم ما يؤيد مسلكهم في الغزو، ويشيرون إلى كثير من المشاهد الذميمة التي لا ترضيهم ، مما جعلهم يفتخرون بأنفسهم عن طريق ذم المجتمع في كثير من صوره . ففي معظم قصائدهم في الفخر ذم لشخصيات يرونها ويعبرون عن تذمرهم منها . ويقارنون بين سجاياهم .

فالشنفرى في لاميته يفتخر بتميزه بأفضل الصفات وينفي عنه مجموعة من الصفات القبيحة ذامًا أصحابها في صورة أقرب ما تكون إلى السخرية فهو ليس بمهياف يبعد بأبله في طلب الرعي على غير علم فيهلكها ، ولا هو بالجبَان الأكلف الوجه مقيم على زوجته لا

[1] المُبرِّد : أبي العباس محمد بن يزيد ، الكامل في اللغة والأدب ، علق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، ج1 ، ط3 ، القاهرة ، 1417هـ / 1997م ، ص 183 .

يبارحها (يطالعها) بأسراره ويشاركها في أموره الخاصة . ولا هو بالجبان كالظليم ينفر من الصوت ، و المكاء ، ولا بالعاطل الذي لا يبارح زوجته و أهله يشارك النساء زينتهن :

وَلَسْتُ بِمِهْيَافٍ يُعَشِّي سَوَامَه مُجَدَّعَةً سُقْبَانُها وَ هْيَ بُهَّلُ

ولا جُبَّإٍ أكْهَى مُرِبٍّ بِعِرْسِهِ يُطَالِعُها في شَأْنِهِ كَيْفَ يَفْعَلُ

وَلاَ خَرِقٍ هَيْقٍ كَأَنَّ فؤادَهُ يَظَلُّ به المُكَّاءُ يَعْلُو وَ يَسْفُلُ

و لا خَالِفٍ دَارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ يَرُوحُ وَ يَغْدُو داهنًا يَتَكَحَّلُ[1]

ويرسم عروة بن الورد صورة لشخصيتين من الصعاليك الأول صعلوك خامل يرتاد أطراف البيوت بحثًا عن المجازر وفتات الطعام ، يعين نساء الحي ، وينام ذليلاً ويصحو كالبعير من التعب ، والثاني صعلوك مشرق الوجه على وجهه نور المهابة يطلُّ على أعدائه فيخافونه ويزجرونه كما يفعل الإيسار بالقدح المنيح الذي لا نصيب له (يجادل صاحبته أم حسان) قائلاً أي الشخصين تريدينني أن أكون ؟

---

[1] ديوان الشنفرى . ص 61 .

* المهياف : الذي يبعد بإبله طالبا المرعى على غير علم ، فيعطش . السوام : الماشية التي ترعى .
السقبان : جمع سقب وهو ولد الناقة الذكر . بُهل : جمع باهل وباهلة وهي التي لا صرار لها .
الجُبَّأ : الجبان . و الأكهى : الكدِر الأخلاق الذي لا خير فيه . عِرسه : امرأته .
الخرق : يقصد بها هنا الخوف . الهيق : الظّليم (ذكر النعام) . المُكّاء : ضرب من الطيور .
الخالف : الذي لا خير فيه . الداريّة : المقيم في داره لا يبارحها . المتغزّل : المتفرغ لمغازلة النساء .
يروح : يسير في الرواح وهو من زوال الشمس إلى الليل . الداهن : الذي يتزين بدهن نفسه .

لحى الله صعلوكاً ، إذا جن ليلَـهُ ، مصافي المشاشِ ، آلفاً كل مجز

يعد الغنى في نفسهِ كلّ ليلـة ، أصابَ قِراها من صديق ميسر

يُعينُ نساء الحي ما يستعنـّه ، ويمسي طليحاً ، كالبعير المحسر

ولكن صعلوكاً ، صحيفة وجهه ، كضوءِ شهاب القابس المتنور

مطلا على أعدائِه يزجرونـه ، بساحاتهم ، زجرَ المنيح المشهر[1]

وعليه فإنه يبدو أن المتمردين من الصعاليك لم يكونوا جميعًا من المتمردين فبعضهم قد ارتضى حياة الخمول والذلة في الوقت الذي رفض بعضهم واقعه وتمرد عليه ، فمن خلال هذه الأبيات قدم لنا عروة نموذجا فنيًا جسد فيه صورة الصعلوك المنبوذ الخامل ، وصورة الصعلوك الرافض المتمرد .

وأما في قصيدة أخرى له فإنه مثل لنا صورة مناقضة له في كرمه و إيثاره وعفته وإبائه .إذ أنه لا يُكثر التردد على صاحبه حين يكون ميسور الحال أعسر وقلَّ عطاؤه و أنقطع عنه ، وأنه لا يغني ويترك جاره فقيرًا . و لا يقف إن أملق وقفة الذليل الخاضع أمام غنى شحيح لم يعتد العطاء :

---

[1] ديوان عروة . ص 68 .

* مصافي المشاش : مختار ، مؤثر للأكل . والمشاش : رأس العظم اللين . المجزر : الموضع الذي يجزر فيه الإبل ، فهو الدهر في موضع مأكل . يمسي طليحًا : قد أعيا وحسر من العمل كأنه بعير محسر . أي حسير ضعيف .

مطلاً : أي مشرفًا . يزجرونه : أي يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب به . المنيح : المقصود به هنا قدح مستعار .

بل لا أكاثِرُ صاحبي في يُسرهِ ، وأصُدُّ إذ في عيشه تصريد

فإذا غنيتُ ، فإنّ جاري نيلُـهُ من نائلي ، وميسري معهودُ[1]

وكثيرًا ما تظهر هذه الشخصيات في شعرهم دون أن يشيروا إلى أصحابها . ولعل في اختلال ميزان العدالة الإجتماعية في عصرهم أكبر الأثر في تذمرهم من تلك الشخصيات . حتى أنك تكاد تلمح في فخرهم مزيجًا من الفخر والهجاء و السخرية . وهم هنا أقرب إلى تمجيد تلك الصفات وذم غيرها . ويبدو أن هذا الموقف الغاضب تجاه قبائلهم و مجتمعاتهم قد أثر في كل موضوعات شعرهم فجاء فخرهم قويًا مدافعًا عن مبدئهم ثائرًا على حياة الكثيرين التي لا تعجب هؤلاء الشعراء فذموا أصحابها و تبرءوا منها .

الذاتية و البعد عن الجماعة :

كان الشعراء الجاهليين هم لسان قبائلهم ومجتمعاتهم . يمدحون ساداتها ، ويعددون مآثرها ، و يفتخرون بأمجادها و انتصاراتها و سجاياها .

إلا أن الشعراء الصعاليك تخلصوا من هذا الانتماء القبلي (الجماعي) الذي يغطى على الفرد ، وهذا شيء لا غرابة فيه إذا نظرنا إلى أسباب تمردهم من خلع وطرد واضطهاد وفقر وتذمر من ضيق العيش مع الجماعة واستحالة استمرارهم مع قبائلهم .ولذلك لم يكن غريبًا أن يبتعدوا عن ذكر القبيلة في شعرهم ، و أن يظهروا غضبهم على مجتمعاتهم ، فاستعاضوا بالذات عن الجماعة . يقول سعيد شلبي (وهذه الظاهرة التي تضم الصعلوك إلى الصعلوك ،

---

[1] المصدر نفسه . ص 57 .

* تصريد : تقطيع . الميسر : من يسره له : سهله ، ووفقه له .

تقابلها ظاهرة أخرى وهي اعتزاز كل صعلوك بنفسه وتباهيه بشجاعته ، وتغنيه بمواقفه السابقة من قبيلته).[1]

ولكن لا يمكن تعميم هذا القول على جل شعراء الصعاليك فها هو عروة بن الورد لم تنقطع صلاته بقومه و لكنه كان يثور على البخلاء من (عبس) ويساعد الفقراء من أهله وجيرانه ، كما أن السليك بن السليكة أيضًا يجمع صعاليكه من (فهم) . ولم يكن تغنيهم بمواقف سابقة في قبائلهم ، بل هي مواقف تميزوا بها في حلهم و تشردهم ، وأرادوا من مجتمعاتهم أن تتحلى بها .

و الظاهر في أشعار الصعاليك ابتعادهم عن ذكر قبائلهم و مجتمعاتهم ، وإن تحدثوا عنها وصفوها بأقبح الخِلال و توعدوها بالغزو و الإغارة . ومن ذلك هجوم عروة على قومه بني عبس حين اتهمهم بالتهرب من تحمل المسؤولية الجماعية وتركهم سفهاءَهم يتناولونه بألسنةِ السوء ووقوفهم من ذلك موقفً ملتبسًا.

أيا راكباً!! إما عرضت ، فبلغنْ بني ناشبٍ عني ، ومن يتنشّبُ
أكلكم مختارُ دارٍ يحلها ، وتارك هُدْمٍ ليس عنها مُذنبُ
وأبلغ بني عوذ بن زيد رسالة ، بآية ما إن يقصبوني يكذبوا
فإن شئتم عني نهيكم سفيهكم ، وقال له ذو حلمكم :أين تذهب ؟
وإن شئتم حاربتموني على مَدًى ، فيجهدكم شأو الكظاظِ المغرّبُ[2]

---

[1] سعيد شلبي . الأصول الفنية في الشعر الجاهلي . مكتبة غريب . 1977م . ص 393 .
[2] ديوان عروة . ص 45 .
* ينتشب : أي ينتسب إلى بني ناشب . يقصبوني : يشتموني .

وقد استعاض الصعاليك أيضًا بتمجيد مواقفهم الخاصة وسجاياهم النبيلة ومن ذلك قول الشنفرى في تائيته المفضلية :

وإِنِّي لَحُلْوٌ إِنْ أُرِيدَتْ حَلَاوَتِي ومُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ اسْتَمَرَّتِ
أَبِيٌّ لِمَا آبى سَرِيعٌ مَباءَتِي إلى كلِّ نَفْسٍ تَنْتَحِي في مَسَرَّتِي[1]

وتأبط شرًا يهدد قومه بقوله :

إني زَعِيمٌ لئن لم تتركُوا عَذَلي أَنْ يَسْئَلَ الحيُّ عنِّي أَهلَ آفاقِ[2]

والواضح في شعر الصعاليك قلة قصائد المدح في أشعارهم ، فقد أعرض معظمهم عن المدح التقليدي الذي كان شائعًا في العصر الجاهلي إذا استثنينا قصيدة لتأبط شرًا يمدح فيها ابن عنه (شمس بن مالك) . يبدأ مدحه له بذكر تشرده وانقطاعه عن المجتمع .

قَليلُ التَّشَكِّي لِلمُهِمِّ يُصِيبُهُ ، كَثيرُ الهَوَى ، شَتَّى النَّوَى والمَسَالِكِ
يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ ، ويُمْسِي بغَيْرِهَا جَحِيشاً ، وَيَعْرَوْرِى ظُهُورَ المَهَالِكِ[3]

الكظاظ : هو ما يملأ القلب من الهم و التعب و الشدة .
المغرب : البعيد .
[1] المفضليات . ص 112 .
* العزوف : المنصرف عن الشيء . استمرت : استفعلت من المرارة . يقول : أنا سهل لمن يساهلني ، مر على من عاداني .
المباءة : الرجوع . تنتحي في مسرتي : يقصد إلى ما يسرني .
[2] نفسه . ص 30 .
زعيم : كفيل و ضمين .
[3] ديوان تأبط شرًا . ص 152 .
* المَوْماة : المفازة . الجحيش : المنفرد

كذلك في قصيدة لعروة يذم فيه فضيل بن شريك ، مدح فيها مالك بن حماد ، الذي أحسن استقبال عروة وأصحابه من أهل الكنيف :

وزود خيراً مالكاً ، إن مالكاً   له ردّةٌ فينا ، إذا القوم زهَّدُ[1]

إلا أن أكثر المدح عندهم هو مدح الصعلوك لأخيه الصعلوك وفي حد ذاته مدح لمواقفهم المشتركة ، وبطولاتهم ، و إقدامهم و ارتيادهم المراقب .

بفِتيانٍ عَمارِطَ من هُذَيلٍ   هم يَنْفُونَ آناسَ الحِلاّل[2]

ومدح الشنفرى (تأبط شرًا) حينما وصفه بأنه كالأم التي تعطف على أبنائها . و تطعمهم مقدار ما يسد رمقهم خشية عليهم من الجوع ، و أنها حكمية تسييس الأمور كما ينبغي .

وأُمُ عِيَالٍ قد شَهِدتُ تَقُوتَهُمْ   إذا أطعمتهم أَوْتَحَتْ وأَقَلَّتِ

تَخافُ علينا العَيْلَ إنْ هيَ أَكثرتْ   ونحنُ جِياعٌ ، أَيَّ آلٍ تَأَلَّتِ[3]

وَيَعْرَوْرِى : أي يركب .

[1] ديوان عروة ، ص 60 .

* ردة : أي بقية .   إذا القوم : أراد جميع العشيرة .

[2] ديوان الهذليين ، ج 3 ، ص 115 .

* العمارط : الذين لا يتركون شيئًا إلا أخذوه . ينفون : يطردون .   آناس : جمع انس . حلال : جمع حلة (بكسر الحاء وتشديد اللام) وهي المحلة ، أي يغيرون عليهم فيهربون .

[3] المفضليات ، ص 110 .

* أم عيال : يقصد هنا تأبط شرًا . أوتحت : أعطت قليلا .

إذن لقد تأثر الصعاليك بموقفهم من قبائلهم و تجلى هذا الأثر في معظم موضوعات شعرهم من وصف و فخر و مدح و هجاء . إذ ابتعد معظمهم عن مدح أشراف القبائل و ساداتها بل صبوا جل غضبهم على أولئك السادة ، واستعاضوا بمدح أنفسهم ، وتبادلوا الإعجاب ببعضهم .

العَيْلَ والعيلة : الفقر . أَيَّ آلٍ تَأَلَّتِ : أي سياسة ساست .

لقد حفلت المصادر العربية التي عنيت التراث الشعري العربي الجاهلي بتدوين نتف من أشعار الصعاليك ، حيث لم يحصل على جل هذا الشعر مطبوعاً في دواوين مستقلة ، و لكنه وجد متناثرًا في الأغاني للأصفهاني و في الحماسة لأبي تمام ، وفي كتب أخرى متفرقة ، فضلاً عن بعضه المطبوع في دواوين مثل شعر تأبط شرًا ، و ديوان الشنفرى و عروة بن الورد ، ومما يسترعي الانتباه أن شعر الصعاليك يمثل مستوى فنيًا راقيًا .

فحين نطلع على أشعار الشنفرى ، و تأبط شرًا ، وعروة ، و السليك بن السليكة ، وغيرهم نجد ظاهرة شعرية لا تنم على أنّ أصحابها مجرد صعاليك ، و لكنهم يمثلون فئة اجتماعية مستنيرة راعتها المظالم الاجتماعية و الاعتداءات القبيلة ، فأشهرت ثورتها وعصيانها على بعض تلك القيم الغاشمة ، مثل استفحال ظاهرة الثراء و الفقر ، و ما يتأتى على ذلك من مظالم ، في ضوء ما ظهر في المجتمع الجاهلي ، من صراع طبقي وعرفي ، ومن ثمة صور هؤلاء الشعراء تلك الظروف السائدة ، على الرغم من اكتناف هذا التصوير مبالغة و تطرف .

فشعر الصعاليك في العصر الجاهلي يعتبر نمط شديد القرب إلى جوهر الفن ، فهو شعر ولد في لحظات توتُّر حادة ، مِن جماعة تعيش بطبيعة تكوينها على حافة مجتمع ، وتحتل بهذا موقعًا أصبح الفن الحديث الآن يجد فيه منبعًا ثرًّا للإبداع الفني ، ومناخًا ملائما لتصوير حالات التفرد في الجماعة البشرية . و قد مثَّل شعر هذه الجماعة جانبًا هامًا مِن جوانب الشعر الجاهلي ، إن لم يكن من حيث الكم ، فهو من حيث المذاق و التأثير الذي يحتاج إلى الكشف عن بعض جوانبه ، وهذا التأثير يبدو أنه قديم قِدَم ما عُرف من الأدب الجاهلي نفسه . فهو وجه آخر ينضاف إلى الشعر الجاهلي و يزيده إثراء و عمق .

وفي دراسة لشعر الصعاليك نجد بأنه شعر معارض للقبيلة و مفاهيمها ، وهو شعر (صادق) لأن الشعر الصادق هو الذي يرفع يده و صوته في وجه التّسلّط و الظّلم ، وهذا ما فعله الصعاليك ، فخلافهم مع المجتمع القبلي الذي تمرّدوا عليه ، في نمط العيش ، وفي شكل التّجمّع و التّعايش ، والطّقوس و المعتقدات ، جعلهم يخالفوه و يختلفوا مع فنّه وموضوعاته ، وبنية قصيدة شعرائه ، بل و تفرّدهم في شعرهم ، من حيث وحدة الموضوع وكذا المضمون ، فإذا أخرجنا الصعلكة من مفهومها إلى قيمة ايجابية فإنّنا نستخرج من رواسبها العميقة فنّاً متأنّيًا جميلاً ، وألا يضيع الشنفرى وعروة ، وأبا خراش و صخر الغي ....وغيرهم ، فيُفتّت شعرهم أبياتٍ و كلمات ، و يُقرأ كوثيقة تاريخية أو اجتماعية ، ويُطمس تفردّهم ، وتضيع شعريّتهم المتميّزة في خضّم بحر الشعر الجاهلي العام .

فدراسة المعلقات ، وتحليل القصائد الطوال لشعراء الجاهلية تحليلاً شموليًا ، أحدث شرْخًا و خللاً في جوانب أخرى من هذا التراث الزّاخر بالفنون المتعدّدة الرّؤى . والدارس لشعر الصعاليك يقوم أساسا على رصد ملامح الشّعرية في شعرهم ، بل في شعر كل واحد منهم ، لاستكشاف المصدر الأصلي للحقيقة الضائعة أو المغمورة أو المسكوت عنها [1] .

إن انقطاع الصّلة بين الصعاليك وبين قبائلهم من نواح متعددة اجتماعية واقتصادية و سياسية ، أدى إلى انقطاعها فنيًا ، وهذا الخلل الذي حدث بينهما ، ولّد لديهم رؤى مختلفة و مخالفة في كثير من الموضوعات التي جادت بها قرائحهم ، و إنْ غابت بعض الرؤى ، كما جاءت في شعر القبائل ، فإن الصعاليك وضعوا لها معادلا موضوعيًا ، تردَّد في شعرهم ، بحكم المحيط الذي ألفوه ، بطبيعته ، و وحشه ، و أنسه ، و بحكم مغامراتهم ، و تربصهم

---

1 يُنظر : شريف بشير أحمد . الصعلوك الشعري ورؤيوية " تأبط شرًا " ، مجلة جذور ، العدد 4 ، سبتمبر 2000 ، ص 3 .

بالقبيلة و أملاكها ، و قوافل تجارتها ، فحضر ـ بشكل جليّ ـ الوحش الذي اختاروه أهلا بديلا ، لأنهم لجئوا إلى أمكنته ، و سكنوا كهفه ، و اعتصموا بأعالي الجبال . فأصبح شعرهم يعبّر عن هذه الحياة الجديدة التي ألفوها بطبيعتها ووحشها ، وتحرروا من سلطة القبيلة و شيوخها ، و أضحى الأنا الفردي طاغيًا ، و انتفى ضمير القبيلة من قاموسهم .
وإن ورد ضمير الجمع في شعرهم ، إنما هو الأنا الجمعي الذي يعبّر عن تجمع الصعاليك ، حيث لا تربطهم رابطة القبيلة أو اللون أو النسب ، و إنما رابطة جديدة على المفهوم الاجتماعي أنذاك .

ا المبحث الأول : أغراض شعر الصعاليك .

حين نستعرض شعر الصعاليك فإننا نلتمس فيه أغراض كثيرة نذكر منها :

1- *الفخر* :

الفخر صفة مشتركة بين الشعراء جميعًا قديمهم و حديثهم ، فلا يتصور شاعر قط لم يفتخر بنفسه و إن لم يكن يستحق من الفخر شيئًا . فمن الطبيعي أن يفخر الشعراء الصعاليك بأنفسهم ، وقد فخروا . ولكننا نلاحظ أنهم لم يجعلوا الفخر موضوعًا ولا حتى غرضًا مقصودًا لذاته ، و إنما يأتي عرضًا ، و استنتاجًا من أحداث و معاني سابقة ، وكأنه تعليق أو تعقيب على حديث ، على أن فخرهم لا يخلو في معظم الأحيان أيضًا من كونه في محيط الصعلكة ، إشادة بجانب أو صفة من صفاتهم السابقة التي جعلوها أسلحة لهم في الصعلكة ، كقوة الإرادة و الحزم و الجرأة و الاستهانة بالموت ، وحتى في بعض المعاني التي تخرج من محيط الصعلكة نجدها مقرونة بصفات الصعلكة ، كقول الشنفرى بعد حديثه عن صبره وقوة إرادته

ولا تَزْدَهِي الأجْهالُ حِلْمِي و لا أُرِى سَؤُولاً بِأعْقَابِ الأَقَاويلِ أُنْمِلُ [1]

وعروة بن الورد يفخر بإكرامه الضيف ، و إكرام الضيف و الفخر به شائع في شعر العرب ، ولكن غير الشائع ما قرنه به عروة ، من أنه يجعل من إكرامه الضيف محادثته حيث يقول :

فراشي فراشُ الضعيف و البيت بيتُه ولم يلهني عنه غزالٌ مقنعُ

أحدثه ، إنّ الحديثَ من القِرى ، وتعلمُ نفسي أنه سوفَ يهجع[1]

---

[1] ديوان الشنفرى ، ص 69 .

* تزدهي : تستخفّ . الأجهال: جمع الجَهْل ، والمقصود الحمق والسَّفاهة .

سؤول : كثير السؤال . الأعقاب : جمع العقب ، وهو الأخر . أُنْمِلُ : النميمة .

وتأبط شرًا يفخر بأنه يضرب هام العدا أيضًا شائع في الفخر ، ولكن غير الشائع أن يقول أنه لا يهدف من ذلك إلى فخر أو ذكر بين الناس فيقول :

وَ مَا ضَرْبُهُ هَامَ العِدَى لِيُشَجَّعَا   يُمَاصِعُهُ ، كُلٌّ يُشَجِّعُ قَوْمَهُ ،[2]

وهكذا حين نتتبع فخر الصعاليك نجد أنه ليس فخرًا عاديًا كالمألوف في فخر غيرهم ، و إنما نجد لهم دائمًا طابعهم المعين ، أو اتجاها خاصًا يميزون به أنفسهم ، و يميزون به شعرهم .

2- *الاعتزاز بالقبيلة* :

والاعتزاز بالقبيلة من أكثر الموضوعات و الأغراض شيوعًا في الشعر العربي القديم ، نتيجة لوضعهم القبلي الاجتماعي ، و ما يترتب على ذلك ممَا هو معروف في علم الاجتماع ، من تأثر الفرد بالقبيلة ، و ترابط أفرادها و طغيان شخصية القبيلة من حيث هي على شخصية الأفراد في جملتهم[3] .

ولكن الصعاليك شذوا في جملتهم ، حيث كان الواحد منهم يعتبر نفسه قوة مستقلة ، و كيانًا مستقلاً ، و لذلك انفردوا بأن الواحد منهم كثيرًا ما يتصدى لقبيلة أو حي بأكمله ، و يهدده

ويتوعده بمفرده ، و كأنه قوة مماثلة لقوة قبيلة أو حي ، كما فعل الشنفرى مع بني سلامان و كما فعل تأبط شرًا مع بني لحيان من هذيل ، و لكن بعض الصعاليك كانوا من العمد التي تقوم عليها قوة قبيلتهم ، كجحدر بن ضبيعة البكرى ، و مالك بن حريم الهمذاني ، و عروة بن الورد العبسي ، و قيس بن منقذ السلولي قبل خلعه ، وهذا النوع من الصعاليك شارك قبيلته في كل ظروفها ، من

---

[1] ديوان عروة ، ص 83 .

* الغزال المقنع : المرأة اللابسة القناع ، أو ما تغطي به شعرها .   القرى : أي الكرم .

يهجع : ينام

2 ديوان تأبط شرًا ، ص 114 .

* يماصعه : أي يقاتله ، و أصله المَصْعُ أي الضرب و الرَّمي .

[3] عبد الحليم حفنى . شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، ص 322 .

حيث صراعها مع القبائل الأخرى ، و انعكست مشاركته في شعره ، و كان من أثر هذه المشاركة و الارتباط بمصير القبيلة و ظروفها إحساس الفرد بأنه مستمد لجانب من قوته من قوة القبيلة نفسها ، و هذا هو المصدر الأساسي للفخر بالقبيلة و الاعتزاز بها ، و هذا المعنى نجده في شعر أفراد من الصعاليك ، منهم عروة بن الورد ، و قيس بن منقذ و غيرهم .

وهناك صورة من صور هذا المجال ، تتمثل في المنافرات الشعرية التي كانت بين بعض الصعاليك و أفراد من القبائل أو الأحياء الأخرى ، و مصدر هذه الخصومات في معظم الأحيان خصومة القبيلتين أو الحيين يمثلها شاعر من إحدى القوتين في منافرات مع شاعر من القوة الأخرى ، و لم يكن هذا الجانب واضحا في شعر الصعاليك ، باستثناء منافرات صخر الغي مع أبي المثلم الهذلي ، و منافرات قيس بن منقذ مع ابن الأحب العدواني ، و لكن الملاحظ على هذه المنافرات التي اشترك فيها الصعاليك أنها كانت منافرات كريمة ، لم يشبها روح الحقد والغل ، وإنما كان طابعها كرم الخصومة وتقدير الخصم ، وأوضح ما يكون ذلك في منافرات صخر الغي مع أبي المثلم فإنها نموذج للخصومة السامية الكريمة التي لا يتحامل الخصم فيه على خصمه ، ولا ينكر عليه فضائله بل كثيرًا ما يعترف لخصمه بفضائل لم يزعمها لنفسه .

والمراد من كل هذا ، و بعد الحديث المطول في هذا المجال و هو الاعتزاز بالقبيلة ، فإن هذا الاعتزاز لم يطغ على شخصياتهم كما طغى في شعر كثير من غير الصعاليك ، و إنما نحس أن شخصية الصعلوك هي البارزة ، و هي التي يجعلها الصعلوك محورًا لكل شيء ، و كأن قوة قبيلته أو حيه سلاح من أسلحة قوته هو كسائر الأسلحة التي يدعم بها صراعه و قوته .

المدح :

لم يكن الشعر في الجاهلية الأولى كما هو معروف وسيلة للكسب ، ثم عرف الشعراء طريقهم إلى الكسب بالشعر على يد نفر منهم ، فقد كان التكسب بالشعر سبيلا غير خفية و لا منكرا عليها ، بل كثيرًا ما رفع التكسب بالشعر بعض الشعراء في مكانتهم و معيشتهم إلى مستوى السادة و الأمراء ، كما كان كثير من شعراء الجاهلية و الإسلام ، لكن قد يسأل سائل هنا

: فلماذا لم يرح شعراء الصعاليك أنفسهم من هذا العذاب الأليم الذي عانوه في الصعلكة ليتكسبوا بشعرهم ، خاصة و أن التكسب بالشعر لم تكن فيه غضاضة على شاعر ؟ .

والجواب هنا هو عزة النفس ، و الحرص على حريتها في غير حدود لهذه الحرية ، هذه العزة و هذه الحرية التي لا تحد ، هي التي منعتهم من التكسب بالشعر ، بحيث أن لكل قاعدة شذوذا ، فإن قلة قليلة جدا من الصعاليك منحصرة في بكر بن الطحان ،و أبى الطمحان القيني ، هما اللذان اتخذا شعرهما وسيلة للكسب في فترات من حياتهما ، و أما من عداهما من شعراء الصعاليك ، فقد أبى أن يبيع حريته و عزة نفسه لسيد أو أمير لقاء أي شيء ، و أصروا على التزام هذا المبدأ أشد الإصرار ، مفضلين مخاطر الصعلكة و شقاءها على التفريط في شيء من هذه العزة ، وقد صور الشنفرى و أبو خراش هذا الإصرار تصويرا واضحًا ، حيث يقول الشنفرى :

وَ أَسْتَفُّ تُرْبَ الأرْضِ كَيْلاَ يُرَى لَهُ   عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امرؤ مُتَطَوَّلُ[1]

بل يوضح إشارته إلى التعفف عن أي أسلوب كأسلوب التكسب بالشعر أو غيره فيقول :

و لولا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ   يُعَاشُ به إلاّ لَدَيَّ وَ مَأْكَلُ [2]

و قال أبو خراش يعبر عن هذا كله بقوله :

و إنّي لأُثْوِي الجوعَ حتى يملَّني   فأحيا لم يدنسْ ثيابي و لا جِرمي
و أصطبحُ الماء القَرَاحَ فأكتفي   إذا الزادُ أضحى للمزلَّجِ ذا طَعْمِ
مخافةَ أنْ أحيا برغم و ذِلّــةٍ   فللموتُ خيرٌ من حياةٍ على رَغْمِ[3]

---

1 ديوان الشنفرى ، ص 62 .
* الطَّوْلِ : المَنّ .   امرؤ متطوِّل : منّان .
2 نفسه ، ص 63 .
* الذَّأْمِ و الذام : العيب الذي يُذم به . يُلْف : يوجد
3 ديوان أبو خراش ، ص 9 .

ويعبر بكر بن النطاح عن شعار الصعاليك في هذا المعنى قبل أن يتخلى هو عن هذا الشعار فيقول :

و من يفتقر منا يعش بحسامه		و من يفتقر من سائر الناس يسأل [1]

فقد كانوا إذن يعرفون أن هناك وسائل سهلة وادعة للكسب منها التكسب بالشعر ، وكانوا

يعرفون أنه يمكنهم أن يعيشوا من ورائها في لين ورغد ، و لكنهم فضلوا على هذا الرغد أن " يستفوا الترب " و أن " يثور الجوع " إلى أبعد مداه ، لا لشيء إلا "مخافة أن أحيا برغم وذلة " كما يقول أبو خراش ، أو أن يرى أحد له عليهم " طولا " كما يقول الشنفرى .

لقد ورد في شعر الصعاليك مدح على الرغم من عدم كثرته ، فالملاحَظ أن لمدحهم على قلته كان له طابع خاص يتميز به ، و هذا الطابع يتضح في ناحيتين ، إحداهما أنهم في أغلب الأحيان لا يقصدون المدح لذاته ، و إنما يكون مدحهم مرتبطا بحياتهم في الصعلكة ، أو شكرًا على موقف نبيل كان فيه نفع لهم أو لم يكن ، والناحية الثانية أن مدحهم باستثناء الشذوذ أيضًا الذي يكاد ينحصر في بكر بن النطاح وأبى الطمحان القيني ، من أعف أساليب المدح ، و أبعده عن التمجيد و المبالغة ، حيث يكتفي بسرد بعض الفضائل في بساطة و حرص على الحقيقة ، و مجافاة للغل و التصوير و الإفراط اللائي يشعن في مدائح غيرهم من الشعراء ، بل نلاحظ أن كثير من مدحهم لا يبرز في الممدوح إلا الصفات التي عرف بها الصعاليك أو اختصوا بها .

ومن هذا النوع الأخير مدح تأبط شرًا لقريب له ، يصفه بالصبر ، و التنفل بين المخاطر و المهالك ، وسرعة العدو ، و الحذر واليقظة ، و الجرأة والإقدام ، و يصفه بإيثار الوحشة و العزلة على الأنس ، و بهذا يكون قد جمع فيه أهم ما يميز الصعاليك في صفاتهم فيقول :

إنِّي لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِي فَقَاصِدٌ		بِهِ لابنِ عَمِّ الصِّدْقِ شَمْسِ بنِ مَالِكَ

---

* أُثوي : أقيم ، أسكن .		الجرم : الجسد

أصطبح : يشربه صباحًا . القراح : الخالص . المزلّج : الضّعيف و الجشعُ .

1 محمد الخضرى . مُهذّبُ الأغاني ، ص 85 .

أَهُزُّ بِهِ في نَدوَةِ الحَيِّ عِطْفَهُ   كَما هَزَّ عِطْفِي بالهِجَانِ الأَوَارِكِ

قَليلُ التَّشَكِّي لِلمُهِمِّ يُصِيبُهُ ،   كَثيرُ الهَوَى ، شَتَّى النَّوَى و المَسَالِكِ

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ ، و يُمْسِي بغَيْرِهَا   جَحِيشًا ، وَيَعْرَوْرِي ظُهُورَ المَهَالِكِ

وَيَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيح مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي   بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدِّهِ المتَدَارِكِ

إذَا خَاطَ عَيْنَيْهِ كَرَى النَّومِ لَمْ يَزَلْ   لَهُ كَالئٌ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكِ

إذَا هَزَّهُ في عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ   نَوَاجذُ أفواهِ المَنَايَا الضَّوَاحِكِ

يَرَى الوَحْشَةَ الأُنْسَ الأَنِيسَ ، ويَهْتَدِي   بِحَيْثُ اهْتَدَتْ أُمُّ النّجُومِ الشَّوابِكِ[1]

و أبو خراش له شعر في المدح و لكننا نجد مدحه إما لشخص يعتبره عضدًا له في الصعلكة و عونًا على أعدائه كخالد بن زهير أو ذامنة و مكرمة ، كالشخص الذي أنقذ ابنه خرشا من القتل حين كان خراش مع عمه عروة في رحلة صعلكة ، فقتل عروة ، ونجا خراش بفضل شخص ألقى عليه رداءه فحجبه عن القوم حتى عدا و نجا بنفسه ، فمدح أبو خراش هذا الرجل دون أن يعرفه ، و قيل في هذا أنه لا يعرف شاعر مَدح من لا يعرفه قبل أبى خراش .

الهجاء :

1 ديوان تأبط شرًا ، ص 148-156 .

* مَهْدٍ : من الهدية و الإهداء . الهجان : الإبل البيضُ الكرام . الأوارِكِ : نَبْت . وَفْدَ الرِّيح : الريح السريع . ينتحي : أي يقصد . المنخرق : السريع الواسع . كرى : نوم خفيف . الكالئ : الحفيظُ الذي يكلأ الخطر . شَيْحَانَ : الحَذِرُ الحازم .

و لئن كان مدح الصعاليك لغيرهم لم يجر على عزة نفوسهم ، و لم ينزل إلى التهافت و المغالاة فإن هجاءهم كان أول على خلقهم ، و أقرب إلى أن يكون ممثلا

لطابعهم الذاتي في صفاتهم الشخصية ، و الاجتماعي في خلقهم العام . على أن بعضهم تعفف عن الهجاء قاطبة كعبدة بن الطبيب الذي ترفع عن الهجاء . [1] و في النظر إلى هجاء الصعاليك لغيرهم نجد عفة بالغة في الألفاظ و المعاني ، فلا نعلم صعلوكا قط جنح إلى الإسفاف و الإقذاع في هجائه لأحد مهما يبلغ بينهما من عداء ، وإنما يغلب على هجائهم إن هجوا أن يكون سببه العدوان [2] ، أو موقف خصومه أو إيذاء صدر من المهجو ، بل أحيانًا يكون سببًا إنسانيًا نبيلا لا نعلم أن أحدًا تأثر به من الشعراء غير الصعاليك ، كقصة أبي خراش مع غاسل السعدي الذي قتل جارا له ، و لكن أبا خراش لامه بشعره لومًا عنيف على هذه الفعلة التي يأباها الخلق الكريم ، و تنكرها تقاليد العروبة ، وكان القتيل غلاما تميميًا من بني حنظل ، و من لوم أبي خراش لغاسل على قتله :

أَباتَ على مِقراكَ ثمّ قَتلْتِه ... على غير ذَنْبٍ ذاكَ جَدَّ بكَ الثُّكْلُ

فهل هو إلاّ ثوبُه و سلاحُه ... و ما بكُم عُرْىُ إليه و لا غُزْلُ[3]

وقد تهاجى صخر الغي مع أبى المثلم في منافراتهما ولكنا نجده هجاء بالغ العفة ، حتى ليحسبه الحاسب عتابا بين صديقين ، على ما بين صخر وأبى المثلم من عداء ، و الأعلم الهذلي و إن كان أيضًا قليل الهجاء ، إلا أن هجاءه على قلته يمتاز دائما بطابع معين ، وهو كونه صدى لحياته في الصعلكة ، وهو ما لم يؤلف في الهجاء ، فأحيانًا يشبه مهجوه ببعض مرئياته في حياة الصعلكة فيُشبهه بالضبع في عدم عفة نفسها و تخنثها و أحيانًا

---

1 التبريزي . شرح حماسة أبي تمام ، ص 328 .

2 ديوان الهذليين ، ج2 ، ص 223 .

3 نفسه ، ص 164 .

* المقرى و المقراة : القصعة يقرى فيها الضيف .

عُزْل بضم فسكون : أي و لا أنتم عزل من السلاح .

يصفه بالقصور الهمة عن مراتب السيادة ، ثم يتبين له مراتب السيادة فإذا بعضها من صفات الصعاليك .

ولعل أكثر من بلغنا في شعرهم هجاء فضالة بن شريك ، و هو و إن كان هجاؤه يعتبر من الشذوذ في شعر الصعاليك ، حيث أنه هجا لمنع العطاء و كف القرى عنه ، إلا أن هجاءه يتسم مع نيله من المهجو بعدم الفحش و الإقذاع فقد هجا عاصم بن عمر لأنه لم يقره فكان مما قاله :

ألا أيها الباغي القرى ليست واجدا قراك إذا ما بت في دار عاصم

ثم تذكر أباه عمر فخفف من غلواء هجاءه قائلاً :

و لولا يد الفاروق قلدت عاصما مطوقه يخزى بها في المواسم [1]

ويبدو أن فضالة كان نزاعا إلى الهجاء مع عفة ألفاظه ، فهو يعتبر شاذا بين الصعاليك في هجاءه من ناحيتين ، إحداهما أنه أكثر من بلغنا هجاء في شعره منهم ، و الأخرى أنه الوحيد من بينهم الذي بلغنا أنه هجا لعدم القرى و العطاء ، و كان مظهر مقدرته في الهجاء أنه وُجد لهجائه وقعًا بليغًا عميق يهز كيان المهجو مع عدم الفحش في الهجاء .

الرثاء :

أما رثاء الصعاليك لغيرهم فقد كان أضيق نطاقا ، حيث لا نجد في شعرهم رثاء إلا لدى نفر محدود منهم ، ويتسم رثاؤهم بالطابع الشخصي ، بمعنى أنه لا يبدو أن الرثاء غرض مقصود لذاته لديهم ، و إنما كان تنفيسا عن عواطف حقيقية أحسوا بها ، وذلك لأنا نجد الذين رثاهم الصعاليك ذوي صلة شخصية وثيقة بهم ، إما يكون المرثي ابنا أو أخا أو زميلا في الصعلكة ، أو معينا في وجه من وجوه حياتهم .

فمثلا نجد أبا خراش ورد في شعره رثاء كثير ، و لكنه جميعا لأشخاص مقربين له ، فقد رثى أخاه عروة الذي كان فضلا عن إخوته زميلا في الصعلكة ، و رثا نفرا من إخوته الأشِقاء بني لبنى ، و

1 عبد الحليم حفنى . شعر الصعاليك منهجه و خصائصه ، ص 328 .

صخر الغي رثى أخاه عبد الله ، و كذلك يرثى ابنه ، و له قصيدة أخرى في رثاء ابنه فيها حزن عميق ، حيث يشبّه صخر نفسه بحال حمامة مفجوعة في مخاطبة مع هذه الحمامة ، و هو يشكو إليها فجيعة فقد ابنه تليد ، وهي تشكو إليه فقد فرخها الذي سماه " ساق حر " ومن هذا الشعر يقول :

و ما إنْ صوتُ نائحةٍ بِلَيلٍ — بسَبْلَلَ لا تَنامُ مع الهُجودِ
تَجَهْنا غادِيِيَن فَساءلَتْنِي — بواحدها و أَسأَل عن تَلِيدى
فقلتُ لها فأمّا ساقُ حُرٍّ — فبانَ مع الأوائل من ثَمود
و قالت لن ترى أبدًا تَلَيدًا — بَعْينِك آخِرَ العمرِ الجديد
كِلانا رَدَّ صاحبَه بيأسٍ — و تأنِيبٍ و وِجدان بعيــدِ[1]

و من أشهر رثاء الصعاليك ، رثاء عبدة بن الطبيب لقيس بن عاصم المنقرى ، الذي نافسه فيه بعض الشعراء فلم يلحقوه ، وهو :

عَلَيْكَ سَلاَمُ اللهِ قَيْسَ بنَ عَاصِمٍ — وَ رَحْمَتُهُ ما شاءَ أنْ يَتَرَحَّمَا

تَحِيَّةَ مَنْ غَادَرْتَهُ غَرَضَ الرَّدَى — إذَا زَارَ عَنْ شَحْطٍ بِلاَدَكَ سَلَّمَا
فما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ — و لَكنّهُ بُنْــيَانُ قَــوْمٍ تَهَــدَّما[2]

---

1 ديوان الهذليين ، ج2 ، ص 67 .
* بسبلل : موضع . الهجود : النِّيام . تجهنا : تواجهنا و تقابلنا . تليدي : ابني .
2 التبريزي . شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ص 516 ـ 518 .
* الشحط : البعد .
* تقلت : تفَعّلَت من القلى ، و هو البغض .

وسبب رثائه بقوله " من غادرته غرض الردى " و هو يعنى نفسه .

الغزل :

مهما تكن عزلة الصعاليك ، و نأيهم عن المجتمع ، وإيثارهم للعزلة ، فهم بشر فيهم ما في الناس من عواطف و غرائز ، و لذلك لم يكن غريبًا أن يكون في شعرهم غزل ، بل الغريب ألا يكون .

وليس يعنينا كثيرًا غزلهم لذاته ، و إنما يعنينا طابعهم في الغزل ، و منهجهم في حديثهم عنه ، و أول ما يطالعنا من طابع الصعاليك في الغزل العفة في أكرم صورها ، سواء في حديثهم عن عواطفهم و أشواقهم ، أو عن صفات حبيباتهم و خلقهن ، و أهم ما يتميز به غزل الصعاليك هو الواقعية الحقيقية ، و الصدق في تصوير صلاتهم العاطفية ، فهم يتحدثون عن حقائق عاشوها و تأثروا بها ، خاصة أن بعضهم كان من مشهوري العشاق في العرب ، كتوبة بن الحمير صاحب الحب المشهور مع ليلى الأخيلية ، وعمرو بن عجلان ، فليس في غزلهم شطحات الخيال ، و لا أوهام الأماني الكاذبة ، و شيء آخر يتميز به غزل الصعاليك ، و هو شيوع الغزل بالزوجات ، و يرجع سبب ذلك إلى كثرة أسفارهم و تنقلهم بين أماكن متباعدة ، و تظهر سمة العفة في غزلهم في قول الشنفرى يصف امرأة :

فَيَا جَارَتِي و أنْتِ غَيْرُ مُلِيمَةٍ   إذا ذُكِرَتْ و لا بِذَاتِ تَقَلَّتِ

لَقَدْ أعْجَبَتْنِي لا سَقُوطًا قِنَاعُها   إذا ما مَشَتْ ولا بِذَاتِ تَلَفَّتِ

تَبِيتُ ، بُعَيْدَ النَّوْمِ ، تُهْدِي غَبُوقَها   لِجَارَتِها إذا الهَدِيَّةُ قَلَّـتِ

تَحُلُّ ، بِمَنْجاةٍ مِنَ اللَّوْمِ ، بَيْتَها   إذا ما بُيُـوتُ بالمَذَمَّةِ حُلَّـتِ

كأنّ لها في الأرْضِ نِسْيًا تَقُصُّهُ   على أُمِّها و إنْ تُكَلِّمْكَ تَبْلَتِ

أمَيْمَةُ لا يُخزي نَثَـاها حَلِيلَــها إذا ذُكِرَ النّسْوَانُ عَفَّتْ و جَلَّتِ

إذَا هُوَ أمْسَى آبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ مَآبَ السَّعِيدِ لم يَسَلْ : أينَ ظَلَّتِ[1]

و أما عن غزلهم بالزوجات فقد شاع في شعر نفر منهم ، على رأسهم عروة بن الورد ، و عبدة بن الطبيب .

و كثيرًا ما وجد في غزل الصعاليك أن الغزل يأتي محشوا في القصيدة ، لا مطلعا لها كما هو مألوف لدى الشعراء ، و هذا تعبير عن صدقهم فالصعاليك يتحدثون دائما عن واقع حياتهم ، و شعرهم دائما يمثل مشاغلهم و مشاكلهم و ما يعانونه في الحياة إذ ينشئ الواحد منهم مثلا قصيدة يغلب أن تكون تعبيرًا عن شواغل نفسه و ما يعانيه ، فلا يعنيه أن يكون الغزل في أول القصيدة أو آخرها ، إنما يعنيه تعبيره عن إحساسه به كما يعبر عن إحساسه بأي شيء من الأغراض التي احتوتها القصيدة ، أما الشعراء الآخرون ، فهم بالنسبة للغزل بين حالتين ، إما أن تكون القصيدة مقصورة على الغزل ، ومن الطبيعي في هذا أن تكون

مبدوءة به . و إما أن يكون هدف القصيدة غرضًا يستدعي بدءها بالتشويق كالمدح و طلب العطاء فيبدؤها بالغزل .

و عليه فإن الغزل ليس من الموضوعات الأساسية ، أو الأغراض البارزة في شعر الصعاليك ، حيث نجده في أغلب الأحيان غرضا عاديا يتحدثون عنه كما يتحدثون عن سائر مشاغل حياتهم و آلامها وهمومها ، و لعل هذا من أسباب كون غزلهم يأتي كثيرًا حشوًا في القصيدة لا مطلعا لها .

---

1 ديوان الشنفرى ، ص 33 .

* القناع : ما تغطي به المرأة رأسها . الغبوق : شراب المساء . النِّسْي : ما يُنْسَى

الأَمّ : القصد . تبلت : تنقطع في كلاهما لا تطيله . النَّثا : إخبارك عن الشيء بالحسن أو القبيح .

آب : رجع .

إذن شعر الصعاليك كغيره من الأشعار الأخرى تنوعت أغراضه وتعددت بين مدح وفخر اعتزاز بالقبيلة ، و هجاء ورثاء وغزل ، فكلها أغراض احتوت واقعهم المعيشي .

المبحث الثاني : قيم الشعر الصعلوكي

لقد أثار شعر الصعاليك بتفرعاته المتعددة الاجتماعية و الفكرية و كذا أبنيتها الفنية العديد من الأسئلة حول تفسير و تحليل قيمة هذا الشعر الذي عبّر من خلاله و به شعراؤه عن تجاربهم و هم يتحركون في إطار هذه الظاهرة الفريدة المتمردة الداعية إلى هدم قيم و مثل سائدة و إحلال قيم و مثل جديدة غيرها في مجتمعات قبلية بدوية .

القيم الإنسانية :

فعلى الرغم من مرارة الحياة التي عاشها الصعاليك و تمردهم ، إلا أن هذا لم يمنعهم من ممارسة قيمهم النبيلة و الإنسانية تجاه أهاليهم و عائلتهم فنجد عروة بن الورد ، الذي ينتهي نسبه إلى قبيلة عبس من أبرز الشعراء الصعاليك و أكثرهم نبلاً و إنسانية حتى عرف بأنه (أبو الصعاليك) ، و كان هو نفسه يسمى صعاليكه عياله كما يتضح ذلك في قوله :

و مَن يَكُ مِثْلِي ذل عِيالٍ و مُقْتِرًا   مِن المالِ يَطْرِحْ نَفْسَه كل مَطْرَحِ[1]

فسيرته مليئة بالنبل و الكرم و الشجاعة و الفروسية ، و قد قال فيه صاحب الأغاني : (هو شاعر من شعراء الجاهلية ، و فارس من فرسانها ، و صعلوك من صعاليكها ، المعدودين المقدمين الأجواد)[2] .

و قال فيه الدكتور شوقي ضيف : (و الحق أن عروة كان صعلوكا شريفًا ، و أنه استطاع أن يرفع الصعلكة ، وأن يجعلها ضربًا من ضروب السيادة و المروءة ، إذا كان

يستشعر في قوة فكره التضامن الاجتماعي و ما يطوي فيها من إيثار و بر بالفقراء ، فهو لا يسعى لنفسه فحسب، وإنما يسعى قبل كل شيء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس و شقاء)[1].

1 ديوانه ، ص 23 .

2 الأغاني ، ج3 ، ص 73 .

و قد توافرت في شخصيته مجموعة من العناصر جعلت منه شخصية متفردة ، وسيرة هذا الشاعر بأحداثها و ظروفها هي التي جعلته صاحب شخصية قوية قادرة على مواجهة الواقع المرير بثقة وصبر بغية تحقيق حلمه ، وحلم آلاف الفقراء من أمثاله في الخلاص و الحرية و الكرامة . فحالة الألم والمعاناة التي عاشها عروة و التي تسربت إلى نتاجه الشعري كانت بسبب إحساسه الشديد بالظلم الأسري ، و كذا ملاحقة المجتمع له و احتقاره من قبل أبناء قبيلته ، بل و ناصبته العداء وغدرت به لكنه وقف بشموخ وكبرياء في مواجهة ذلك قائلا :

وإن شئتم حاربتُموني إلى مدًى فَيجهدُكم شأوُ الكظاظ المغرّبُ

فيلحقُ بالخيراتِ من كانَ أهلها و تعلمُ عبسٌ رأسَ منْ يتصوّبُ[2]

وتبرز القيم الإنسانية النبيلة لدى عروة بن الورد في طريقة تعامله مع قبيلته التي تنكرت له ، و كانت سببًا في غربته إلا أنه ترفع أن يعاملها بمثل ما تعامله ، فلم يحقد عليها ، و لم ينفصل عنها انفصالا تامًا كما فعل غيره من الصعاليك ، وإنما ظل مستمرًا بالولاء لها ، يسرع لنجدتها إذا تعرضت للعدوان كما فعل عندما تعرضت قبيلته لعدوان بني عامر ، فوقف عروة بجانبها حتى حقق لها النصر و أفتخر بذلك قائلاً :

ونحن صَبَحنا عامرًا إذ تَمرَّستْ عُلالة أرماحٍ و ضربًا مذكّرا[3]

---

1 شوقي ضيف . تاريخ الأدب العربي 1 ، ص 387 .

2 ديوان عروة ، ص 17 .

* بالخيرات : بذوي الشرف . يتصوب : ينحدر .

3 المصدر السابق ، ص 74 .

* تمرست : تعرضت و عالجت ذلك .

و هذا دليل على ارتباطه بقبيلته على الرغم من كل المواقف السلبية التي اتخذتها ضده ، وبذلك استطاع أن يثبت ذاته ويفرض نفسه حتى أصبحت قبيلته تأتم به ، و تجعل من شعره سلاحًا ماضيًا تواجه بها أعداءها .

و تتعاضم تجربة عروة الإنسانية و اندفاعه بضرورة التغيير و الثورة على سلبيات النظام القبلي القائم على الصراع الطبقي الذي كان سائدًا أنذاك المتمثل في صراع أقلية مالكة متحكمة في رقاب أكثرية جائعة مسحوقة ، فذلك جعل منه و من صعاليكه أناسًا هامشيين في المجتمع الجاهلي دعيًا إلى تغيير الوضع الاجتماعي و الاقتصادي بوضع أفضل لصالح هذه الفئات المهمشة و المحرومة .

وإن حسه الإنساني ، وإحساسه العميق بالغبن الاجتماعي الحاد ، و التمايز الطبقي المذل للذات الإنسانية التي تعيشها هذه الشرائح دفعه إلى مد يد العون و المساعدة لهؤلاء بكل ما يملك حتى أصبح لا يملك في حياته غير الدرع و المخفر و السيف و الرمح و الفرس مدللاً بذلك على فروسيته ، ومؤكّدًا على أن هذه الوسائل هي السبيل الوحيد إلى إدراك المجد و الكرامة في حياة الإنسان و مماته .

فتجربته الإنسانية التي قوامها البذل و الكرم و العطاء و التضحية و إيثار الآخرين على نفسه جعلته فقيرًا ، ففقره من نتاج عطائه لهؤلاء الذين يؤمونه و يشكون إليه فقرهم و كثرة صبيانهم كما يتبين ذلك في قوله :

إذا قُلْتُ: قَدْ جَاء الغِنىَ ، حال دُونَهُ   أبو صبيةٍ ، يشكو المفاقِرَ ، أعجفُ [1]

---

1 ديوانه ، ص 87 .

* المفاقر : المغازات و هي جمع قفر .

ونتيجة لذلك بدأ عروة بمحاربة الفقر ، و الخروج عن المألوف الذي يجعل لمالك المال مكانة رفيعة ، بينما الفقراء فيعيشون على هامش المجتمع ، مما دفع عروة و صعاليكه يسعون إلى امتلاك المال بشتى الوسائل لتأكيد ذواتهم ووجودهم في المجتمع .

فهو يؤكد على ضرورة الخروج من دائرة الفقر إلى دائرة الغنى ذلك لأن :

المالُ فيهِ مهابةٌ و تجلةٌ ، و الفقرُ فيه مذلّةٌ و فضوحُ[1]

و قد لجأ عروة إلى ممارسة دور المحرض على تجاوز عوامل الضعف و العجز عن صعاليكه ، و تمثل قيم الحرية و معانيها من خلال إثارة مكامن القوة فيهم للخلاص من الظلم و الاستغلال . فقد استطاع أن يحول الغزو من فعل استغناء إلى فعل اكتفاء و من حركة سطو إلى إحقاق الحق معززًا صعلكته بمزيد من القيم و المناقب التي تمتع بها ، ومارسها في حياته و غزواته رافضًا الاستكانة و الخنوع لذوي المال و النفوذ على حساب الاستقرار النفسي و الاجتماعي . و هذا جعله يؤمن بحتمية الموت و فكرة الآجال دفعته للمخاطرة بنفسه من أجل الآخرين فهو يرى أن لكل حياة أجلاً ، و أن الإنسان لا محالة ميت و لن يبق منه سوى حسن الأحدوثة و الذكر الحميد و ذلك ما تضح في قوله :

أقليّ عليَّ اللومَ يا ابنةَ منذرِ ونامي ، وإن لم تشتهي النومَ ، فاسهري[2]

ففي محاولته إبراز و ترسيخ القيم الإنسانية بديلا للواقع المأساوي المفروض عليه و بخاصة عندما آمن بأن لا خلود للإنسان إلا بما يخلّفه من مكارم الأخلاق وروائع الشيم و هذا ما جعله يضفي على الصعلكة بعدًا إنسانيًا نبيلاً تجلى في فروسيته الحقّ ، لأن الفروسية في العصر الجاهلي تعني (البطولة في الحرب ، و إطعام الضيف ، و حماية الحقيقة ، و الذود عن المرأة ، و تلبية دعوة المستغيث ، و استجابة لصرخة المنادي و كل ما تستوجبه النخوة ، و يتطلبه الشعور

1 نفسه ، ص 24 .
2 نفسه ، ص 35 .

الإنساني)[1] . و عروة لم يكتف ببطولته في مواجهة استبداد الأغنياء في المجتمع الجاهلي ، وإنما عزز الفعل البطولي لديه و لدى صعاليكه بالفعل الأخلاقي و الإنساني الذي يليق بالنموذج الصعلوكي الحر .

فالقيمة الأخلاقية لا تقل أهمية عن الفعل البطولي في تأثيرها في نفوس الناس ، و لذلك حاول عروة بن الورد إثبات ذاته بالجود و الكرم و التضحية ، و إيثار الآخرين على نفسه .

و من النماذج الشعرية التي تجسد مروءة عروة ، و أخلاقه النبيلة قوله :

إني امرؤ عافى إنائي شركةٌ و أنتَ امرؤٌ عافى إنائك واحدُ[2]

و كذا كرمه و ذلك من خلال جعله فراشه فراشًا للضيف و بيته بيتًا للضيوف ، فهو يجالسهم و يحادثهم لأن الحديث جزء من القرى إذ يقول :

فِراشِي فراشُ الضعيف و البيت بيتُه و لم يلهني عنهُ غزالٌ مقنعُ[3]

و من خلال هذا كله تتضح القيم الإنسانية في شعر عروة بن الورد متمثلة في مواقفه البطولية ، و في انتمائه القبلي ، و كرمه و عطائه و تضحيته ، و في سماحته و عفته ، و في نضاله لتحقيق حلمه و حلم آلاف الفقراء من أمثاله في العدالة الاجتماعية و المساواة ، مسخرًا نفسه من أجل حمايتهم ، و تحقيق طموحاتهم في أن يعيشوا حياة كريمة ، داعيًا إلى ضرورة ترسيخ هذه القيم الإنسانية لبناء مجتمع يقوم على العدل و المساواة بين الناس .

القيم الاجتماعية:

---

1 نُورى حَمّودى القيسى . الفروسية في الشعر الجاهلي ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ، ط1 ، 1384هـ / 1964م ، ص 29 .

2 ديوانه ، ص 61 .

* عافى إنائي شركة : أي يأتيني من يشركني فيه .

3 نفس المصدر ، ص 83 .

1 ـ فلسفة الحياة :

فالحياة في نظر الشعراء الصعاليك . حياة زائلة مؤقتة و الدهر لا يُبقي على أي مخلوق ، و غالبا ما يذكرون عدم تشبثهم بالحياة و تمسكهم بها . حينما يجادلون زوجاتهم .

فتأبط شرًا يجادل صاحبته بهذا المبدأ ، و يطلب منها أن تدعه و شأنه و أن تقول بعد مغامرته ما تشاء لأنه لا محالة سيموت حيث يقول :

و إنّي ـ وَلاَ عِلْمٌ ـ لأَعْلَمُ أَنَّني سَأَلْقَى سِنَانَ المَوْتِ يَبْرُقُ أَصْلَعَا [1]

فالحياة متقلبة لا تدوم على حال (يوم لك ويوم عليك) فلابَّد من الإيمان بهذه القناعة و التمثل بها عند الرخاء و الشدة . فالسليك بن السليكة يواسي صاحبه (صرد) بعد أن ضلوا في إحدى غزواتهم ذاكرًا له أن الدهر لونان و أنه لا يدوم على حال فإن ضاق سيفرج حتمًا

بكر صرد لما رأى الحي أعرضت مهامه رمل دونهم و سهوب [2]

و كأنهم بهذه القناعة يجدون مبررًا لحياة المغامرة و المخاطر فيقللون من قيمة الحياة في سبيل الغاية و الهدف . و يرون أنه لا داعي للخوف و الوجل ، و إن لا ينجي من القدر .

فالشنفرى لا يهاب الموت ، ويقول إنه سيموت في بيته إن لم يمت في الحرب .

ولو لم أَرِمْ في أَهْلِ بَيْتِيَ قاعدًا إِذَنْ جاءَنِي بينَ العمودَيْنِ حُمَّتِي [3]

و هكذا استمدَّ الصعاليك من نظرتهم للحياة بهذه النظرة الكثير من الخلال و السجايا ، كالكرم و الشجاعة و الإقدام و المغامرة ، ففي مثل هذه الأبيات التي تفيض بها قصائدهم امتدادًا لتوجيهاتهم التي ظلوا يطلقونها فخرًا و ذمًا و مدحًا . و تذكيرًا لمجتمعاتهم و بطون قبائلهم بأن هذه الحياة زائلة

1 ديوان تأبط شرًا ، ص 118 .
2 الأغاني 18 ، ص 320 .
3 المفضليات ، ص 112 .
* لم أرم : لم أبرح . العمودين : عمودي الخباء . الحمة : المنية .

لا تدوم . فينبغي أن يتذكروا هذا ، فيبتعدوا عن الشح و البخل ، و يتسربلوا بالإيثار و الإنفاق على الفقراء و المحتاجين . ويقول تأبط شرًا في ذلك :

سَدِّدْ خِلاَلَكَ مِنْ مَالٍ تُجَمِّعُهُ   حَتَّى تُلاقِي الذي كُلُّ امرئٍ لاَقِ [1]

2 ـ الغنى وسيلة و ليست غاية :

يرى معظم الصعاليك بأنهم يسعون للغنى كوسيلة و ليست غاية ، ويحاولون أن يلبسوا مغامراتهم و اعتداءاتهم المتكررة على القوافل و القبائل ثوب الشريعة و القانونية . فهم لا يتكسبون الأغنياء ، ولا يسألونهم مساعدة مهما بلغ بهم الضنك و الإملاق ، و يرون أن سؤال الناس مدعاة للسخرية و الاستخفاف ، و أن خروجهم للغزو ليس التماسًا للغنى بل حينما لا يجدون منفذًا غيره ، فالغنى عندهم ليس لملاحقة الأغنياء و الأثرياء في حياتهم بل لقضاء الحاجات و مواساة الضعفاء من أمثالهم . وإكرام الضيوف و الإحسان إلى جيرانهم .

3 ـ نصرة الرفيق :

فلقد فرضت حياة التشرد على الصعاليك التعاضد فيما بينهم ، فتجمعوا على متون البيد و مضوا يحققون أهدافهم و يطاردون الأغنياء و يتدافعون لحماية بعضهم ، ويتقاسمون ما يغنمونه من غزواتهم . ويظهر هذا التعاون في اقتسامهم المهام عند الخروج للغزو . فيصور لنا الشنفرى كيف يقوم تأبط شرًا على أمرهم حتى كأنه الأم التي تسيس في إنفاقها من قوت عيالها خوفًا عليهم من العوز و الفقر:

وأم عيال قد شهدت تقوتهم   إذ هي أطعمتهم أو تحت وأقلت
تخاف علينا العيل إن هي أكثرت   و نحن جياع أي آل تألــتّ[2]

---

1 ديوانه ، ص 143 .

* الخلال : جمع خَلَّة . و الخلال خصاصاتَ الفقر ، وَسَدُّ الخَصَاص مداواة الفقر .

2

وقد استعاض الصعاليك بهذا المجتمع الصغير عن مجتمعاتهم و أخذوا يتعاونون فيما بينهم، يجمعهم إملاقهم وجوعهم و خلعهم ، يتشاطرون مصائبهم و يؤثرون بعضهم على بعض ، ويمدحون رفاقهم بالشجاعة و التعاضد ونصرة الرفاق . ورغم حياة الضنك و الإملاق و التشرد التي عاشها معظم الشعراء الصعاليك إلا أنهم أبوْ الضيم ، ونلمس ذلك في قصائدهم التي كان فيها تسامي و تعالي عن الإحساس بالهوان و ضعف الحيلة رافضين أن يكون عوزهم مدعاة للسخرية و الاستخفاف ، و هذا ما دفعه للسعي من أجل كسب الرزق فالشاعر الصعلوك في سعي دائم ، يسهر الليل ، ويعمل بالنهار ففي نفسه من الغايات ما يدفعه للخروج و المغامرة للبحث عن قوت عياله و حاجات أهله ، و ذلك يجعلهم يصبرون على

الشدائد التي قد تواجههم في غزواتهم ، فكثيرًا ما افتخر الصعاليك بصبرهم على المحن و الفقر ، و الجوع و قوتهم الجسدية و النفسية و حزمهم و تدبيرهم للأمور بحنكة و دراية ، وإعمالهم عقولهم في تفريج الكروب و تهوين الصعاب .

وأما عن القيم الفنية في شعر الصعاليك فقد خلص الباحثون الذين تناولوا هذا النوع من الشعر إلى تميزه بعدة قيم فنية من أهمها :[1]

تخلصه من المقدمات التقليدية التي اشتهرت بها قصائد الجاهليين و تميزه بالوحدة الموضوعية والذاتية ، و عدم حرصهم على التصريع و السرعة و الاضطراب و أحاديث المراقب و العدو و غيرها ، كما أن شعرهم كان عبارة عن مقطوعات و ليست قصائد طوال كالمعلقات ، واختلفوا أيضًا على الشعر الجاهلي في تخلصهم من العصبية القبيلة و البدايات التقليدية و نفذوا فيها إلى أغراض مباشرة و التزام الغرض الواحد في كل القصيدة على غيرهم من قبل الذين تعددت أغراضهم في القصيدة الواحدة . ففي بداية قراءتك للقصيدة يمكنك أن تستخرج الغرض السائد فيها

1 الأمين محمد عبد القادر . القيم الاجتماعية و الفنية في شعر الصعاليك . دراسة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب و النقد ، جامعة الخرطوم ، 2008 ، ص 81 .

. و لم يخرج الشعراء الصعاليك بأدواتهم الفنية التي صوروا بها واقعهم و حياتهم الخاصة عن قاعدة الشعر الجاهلي ، فقد مارس الشاعر الصعلوك عمله الفني في غير تكلف و جهد ، و عبر عن نفسه تعبيرًا مباشرًا و صور مشاعره كما يشعر بها فكان شعره عفويًا طبيعيًا ، فاعتمدوا على مادة التشبيه كعنصر أساسي في رسم صورهم الفنية واستمدوا تشبيهاتهم من البيئة الطبيعية التي من حولهم ، وكان أكثر ألوان البيان في شعرهم . و أما أسلوبهم ، فعنوه عناية فائقة بالدفاع عن مواقفهم من مجتمعاتهم و فخروا بشخصياتهم باستخدام العبارات و أساليب التي تنم عن معرفة و دراية في توصيل انفعالاتهم الخاصة ، و ذكر مواقفهم من مشاهد يرونها و يعبرون عن تبرمهم و ضيقهم بمن تصدر منه .

خاتمة :

من خلال هذا البحث تعرضت إلى نشأة الشعر الجاهلي و أهم خصائصه ، كما تطرقت إلى مدى تأثير الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي بتقاليدها و أعرافها القبلية في شعر الصعاليك ، و تجلى ذلك في الكثير من موضوعات شعرهم ، فقد تأثروا في ألفاظهم و معانيهم بمواقفهم الخاصة من قبائلهم و مجتمعاتهم و قد ظهرت آثار حياتهم الاجتماعية المزرية على موضوعات شعرهم و أغراضهم و اتضح ذلك الأثر في سَخطهم على المجتمع و ذمه في كثير من صوره التي لم ترضهم ، ولقد حفلت المصادر العربية التي عنيت بالتراث الشعري العربي الجاهلي بتدوين نتف من أشعار الصعاليك ، حيث لم يحصل على جل هذا الشعر مطبوعًا في دواوين مستقلة ، و لكنه وجد متناثرًا في عدة مصادر .

و يعتبر شعر الصعاليك وجهٌ برز من الصحراء الجافة برمالها و جديتها و صلابتها و صراحتها ، و يظل بعيدًا عن الزَّيْف و المجاملة و الرقة المصطنعة ، فهو يظل نموذجًا للشعر الجاهلي الأصيل .

و كغيره من الأشعار الجاهلية تنوعت أغراضه و تعددت بين مدح و فخر و اعتزاز بالقبيلة ، و هجاء ورثاء و غزل ، فكلها أغراض احتوت واقعهم المعيشي . كما أثار شعر الصعاليك بتفرعاته المتعددة الاجتماعية و الفكرية و كذا أبنيتها الفنية جدل كبير حول تفسير و تحليل قيمة هذا الشعر الذي دعا إلى هدم قيم و مثل سائدة و إحلال قيم و مثل جديدة غيرها في مجتمعات قبلية و بدوية .

و في الأخير ما يسعني القول إلا أن شعر الصعاليك على الرغم من الإهمال الذي لقيه و التهميش إلا أنه يعد فنًا راقيًا ، فهو يعتبر نمط شديد القرب إلى جوهر الفن . وختامًا أرجو أن أكون وفقت في دراستي للموضوع وما توفيقي إلا من الله عز وجل .

مكتبة البحث :

1) ابن الشجري : هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة . حماسة ابن الشجري (450 ـ 542هـ) . دار الكتب ، ط1 ، القاهرة ، 1344هـ/1925م .

2) ابن سلام الجمحي . طبقات الشعراء . دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1422هـ/2001م .

3) أبو خراش الهُذلي . شعراء العصر الجاهلي . مراجعة وتدقيق أحمد عبد الله فرهود ، دار القلم العربي ، ط1 ، حلب ، 1417هـ/1996م .

4) أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . المفضليات . دار المعارف ، ط6 ، القاهرة ، 1361هـ/1942م .

5) الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين . الأغاني . دار الفكر للطباعة و النشر ، ج13 ، (د.ت)

6) . . . . مطبعة دار الكتب المصرية ، الأجزاء 3 /18 ، القاهرة ، 1347هـ/1929م .

7) الأمين محمد عبد القادر . القيم الاجتماعية والفنية في شعر الصعاليك . دراسة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب و النقد ، جامعة الخرطوم ، 2008م .

8) بوجمعة بوبعيو . جدلية القيم في الشعر الجاهلي رؤية نقدية معاصرة . من منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2001م .

9) تأبط شرًا : ثابت بن جابر الفهمي ت نحو (80ق.م) . ديوانه و أخباره . جمع و شرح علي ذو الفقار شاكر ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1404هـ/1984م .

10) التبريزي : يحي بن علي بن الخطيب أبو زكريا ت(502هـ) . شرح حماسة أبي تمام . مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1960م .

11) الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ت (255هـ) . الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون ، ج1 ، ط2 ، 1384هـ/1965م .

12) حنا الفاخوري . الجامع في تاريخ الأدب العربي . دار الجيل ، بيروت ، 1426هـ/2005م .

13) ديوان الهذليين . الدار القومية للطباعة و النشر ، القسم 2 ،1950م .

14) ديوان الهذليين . الدار القومية للطباعة و النشر ، القسم 3 ، القاهرة ، 1965م .

15) سعيد شلبي . الأصول الفنية في الشعر الجاهلي . مكتبة غريب ، 1977 .

16) الشنفرى : عمرو بن مالك (70ق.م) . ديوانه . جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، ط2 ، بيروت ، 1417هـ/1996م.

17) شوقي ضيف . تاريخ الأدب العربي1 العصر الجاهلي . دار المعارف ، ط11 ، القاهرة ، 1960م .

18) عبد الحليم حنفى . شعر الصعاليك منهجه و خصائصه . مطابع الهيئة المصرية العامة للكتّاب ، 1987م .

19) عروة بن الورد . ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك . دراسة و شرح وتحقيق أسماء أبو بكر محمدّ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1418هـ/1998م .

20) عمر فرّوخ . تاريخ الأدب العربي . دار العلم للملايين ، ج1 ، ط4 ، بيروت ، أبريل 1981م .

21) المُبرِّد : أبي العباس محمد بن يزيد (210 ـ 285هـ) . الكامل في اللغة والأدب . علق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، ج1 ، ط3 ، القاهرة ، 1417هـ/1997م .

22) مجلة أبحاث ميسان ، العراق ، المجلد7 ، العدد13 ، 2010 .

23) مجلة جذور ، جدة ، العدد 4 ، سبتمبر 2000م .

24) محمد الخضرى . مُهذّب الأغاني . مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية ، مصر ، (د.ت) .

25) محمّد زغلول سلام . مدخل إلى الشعر الجاهلي دراسة في البيئة و الشعر ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، مصر ، 1989م .

26) محمود رزق حامد . الأدب العربي و تاريخه في العصر الجاهلي . دار العلم و الإيمان للنشر ، ط1 ، دسوق ، 2011م .

27) نورى حمّوُدى القيسى . الفروسية في الشعر الجاهلي . منشورات مكتبة النهضة ، ط1 ، بغداد ، 1384هـ/ 1964م .

28) يحي الجبوري .الشعر الجاهلي خصائصه و فنونه . مؤسسة الرسالة ، ط5 ، بيروت ، 1407هـ/1986م .

29) يوسف خليف . الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . دار المعارف ، ط3 ، القاهرة ، 1959م .

الفهرس :